

الدكتور عبد الرحمن الحجي
والمنظور الإسلامي لتاريخ الأندلس

إعداد

د عامر ممدوح خيرو

الجامعة العراقية / كلية الآداب

المقدمة

يدور البحث الذي بين أيدينا حول (الدكتور عبد الرحمن الحجى والمنظور الإسلامى لتاريخ الأندلس) وهو يكتسب أهميته فى ميدان البحث التاريخى من جوانب عدة ، لتعلقه بأحد رواد الدراسات التاريخية الأندلسية ممن نال المكانة والتقدير فى الأوساط الأكاديمية والثقافية على مختلف الأصعدة ، ولارتباطه بجانب مهم وأصيل من تاريخ الأندلس .

ضم البحث ثلاثة مباحث ، دار الأول حول السيرة الذاتية والمهنية والعلمية للدكتور الحجى ، فيما تناول الثانى التاريخ فى فكر الحجى (مفهوماً ومسارات ومنهج) ، واستفاض المبحث الثالث فى الحديث عن الأندلس فى فكر الدكتور الحجى من حيث (الهوية) و(تقييم المراحل التاريخية) و(الأبعاد الحضارية) التى تعرض لها من خلال مؤلفاته ومحاضراته وأسهماته المختلفة .

وفضلاً عن مجموعة مؤلفات الدكتور الحجى والتى مثلت أساس مادة هذا البحث ، اعتمدنا على مجموعة من المصادر الأولية ، والمراجع الثانوية الخاصة بتاريخ الأندلس ، والتى أضافت الإطار التاريخى للموضوع وبما يمنحه بعده التوثيقى المطلوب .

ومن الله التوفيق

المبحث الأول

الدكتور عبد الرحمن علي الحجي : بطاقة تعريفية

لا بد قبلولوج في صلب موضوعنا من تسليط الضوء على السيرة الذاتية للدكتور عبد الرحمن الحجي⁽¹⁾، كونها تمنحنا الاضاءات المهمة للارتقاء المعرفي والوظيفي الذي مر به طيلة مسيرة حياته، والتي لا تزال مستمرة وبإبداع متواصل.

أولاً : السيرة الذاتية

هو الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، من مواليد مدينة المقدادية في ديالى .

درس الابتدائية والمتوسطة والثانوية في العراق ، ونال الليسانس في اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية من كلية دار العلوم في جامعة القاهرة ، وحصل على دبلوم عامة (عالي) في التربية وعلم النفس من كلية التربية (جامعة عين شمس) ، مع دراسة عليا لمدة سنة في الساميات في كلية الفلسفة والآداب-جامعة مدريد.

حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الأندلسي و حضارته من جامعة كيمبرج Cambridge- في إنجلترا عام 1966 عن رسالته للدكتوراه (العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية) بالإنكليزية ، كما نال الأستاذية من جامعة بغداد، بإجماع المجلس العلمي في عام 1979.

الخبرات العلمية والعملية

عمل الدكتور الحجي في العديد من الجامعات العربية ، وبالشكل الآتي :

- 1966-1967 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- 1967-1970 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الرياض (جامعة الملك سعود).
- 1970-1977 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- 1977-1985 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإمارات.
- 1985-1988 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكويت.
- 1988-1997 كرست لإنجاز العديد من الأبحاث علمية.
- 1997-1999 قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة صنعاء اليمن.
- 1999-2002 الإشراف على تنظيم دورات في التاريخ الإسلامي في العديد من الدول الأوروبية .
- قضى السنوات التالية في إعداد البحوث الأندلسية المتخصصة ، وتهيئة موضوعات لدورات في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي والأندلسي ، وإعداد مواد دراسية وبرامج لدبلوم في التاريخ الأندلسي، يُقدّم على موقع إلكتروني من قبل الجامعة العربية المفتوحة (مملكة البحرين).
- الاشتغال بتحقيق مجموعة من المخطوطات العربية في عدد من الدول العربية والإسلامية والأوروبية.
- تقديم دراسات وبحوث أُلقيت خلال العديد من المؤتمرات العلمية و العالمية في بلدان أوربية وعربية.

⁽¹⁾ السيرة العلمية للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، مطبوعة على الحاسبة (نسخته الشخصية التي زود بها الباحث).

- انجاز مشاركات عديدة متنوعة – في دول عربية وخليجية و بالذات في دولة الامارات العربية المتحدة- في إعداد اللوائح العامة و الخاصة و إعداد المناهج الدراسية للمراحل الثانوية والجامعية عموماً ومناهج الاجتماعيات خصوصاً لاسيما التاريخ و الحضارة.
- رئاسة لجنة تعديل مناهج الاجتماعيات في دولة الامارات، لكافة المراحل من الابتدائية الى الثانوية.
- تأليف الكتب المقررة في التاريخ و الحضارة للأول و الثاني الإعدادي في دولة الامارات العربية المتحدة، مؤلفاً و مُشرفاً، و رعاية هذا الميدان في كافة المراحل الأخرى.

ثانياً : النتاج العلمي

للدكتور الحجي أكثر من عشرين كتاباً بين تأليف وتحقيق، غدا العديد منها مقررات جامعية ومعاهد إعداد المعلمين، و مراجع لمختلف المراحل الدراسية، ومنها ما هو معروف عالمياً لدى الدارسين:

المؤلفات المطبوعة

○ رسالة الدكتوراه: مصادرها باثنتي عشرة لغة، منشورة كتاباً بالإنجليزية بعنوان:

- “ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN (1970) Beirut, 1390 EUROPE DURING THE Umayyad Period”-

صدرت النسخة العربية عن المَجْمَع الثقافي في أبو ظبي عام 2004 م، بعنوان: "العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية".

- تحقيق و دراسة لسفر من كتاب المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس، للمؤرخ الأندلسي الكبيرين حَيَّان الفُرطبي (377- 469هـ)، بيروت (1965م). ويتحدث هذا الجزء من المقتبس عن خمس سنوات (360- 364هـ = 971-974م) من أيام الخليفة الأندلسي الحَكَم المستنصر بالله ، الحَكَم الثاني (350-366هـ = 961-976م) .

- تحقيق و دراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس و أوروبا من كتاب: "المسالك و الممالك"، للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبيد البكري (عبد الله بن عبد العزيز، 406-487هـ). ظهر هذا النص تحت عنوان: " جغرافية الأندلس و أوروبا"، بيروت (1968م) .

- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم: دمشق.
- تاريخ الموسيقى الأندلسية أصولها تطورها أثرها على الموسيقى الأوربية، بيروت، 1969م.
- الحضارة الإسلامية في الأندلس أسسها، ميادينها تأثيرها على الحضارة الأوربية، بيروت، 1969م.
- أندلسيات (مجموعتان) - مجموعة بحوث أندلسية، بيروت، 1969م.
- جوانب من الحضارة الإسلامية، بيروت، 1979م.
- مع الأندلس لقاء و دعاء، بيروت، 1980.
- ابن زيدون السفير الوسيط، الكويت، 1987.
- أضواء على الحضارة و التراث- الكويت، 1987م.
- محاكم التفتيش الغاشمة و أساليبها، الكويت، 1987م.

- تاريخنا مَنْ يَكْتَبُه؟ القاهرة، مكتبة دار الفضيلة، 1997م.
- نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي، دار ابن كثير، بيروت، 1999م.
- السيرة النبوية منهجية دراستها و استعراض أحداثها، دار ابن كثير، بيروت، 1999م.
- العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس و بيزنطة (القسطنطينية)، المَجْمَع الثقافي: أبو ظبي، دولة الامارات العربية المتحدة ، 2003 م .
- هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة (ظروفها وآثارها) ، المَجْمَع الثقافي: أبو ظبي، دولة الامارات العربية المتحدة ، 2003 م
- الكتب و المكتبات في الأندلس، المَجْمَع الثقافي ، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة ، 2007م.
- دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي، المَجْمَع الثقافي: أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة ، 2007 م .
- تأمل واعتبار : قراءات في حكايات أندلسية، وزارة الأوقاف الكويتية، 2008م.
- التاريخ الإسلامي شبهاة و حقائق، الكويت، 2009.
- المظلومون في تاريخنا، وزارة الأوقاف الكويتية، 2012م.

مؤلفات قيد النشر

- الإشارات والبشارات النبوية .
- الهجرة النبوية وثمارها .
- الدبلوماسية النبوية وسفراؤها.
- المجتمع الأندلسي (رَصْدُ مَسَارِهِ وَتَحْقِيقُ أَخْبَارِهِ) .
- الأندلس تاريخاً وحضارة .
- شعر العلماء في الأندلس (شعرُهم مرآةُ حالهم).
- أدب علماء الأندلس.
- إعجاز القرآن والنبوة .
- دولة المدينة المنورة : الإسلام والدولة المعاصرة .
- النموذج الأندلسي في تطبيق الشريعة الإسلامية .
- حكايات أندلسية، المجموعة الثانية .
- العز و الرفعة و المنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، تحقيق .
- زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان (بن اسماعيل)، أبو عبد الله محمد بن العياشي (1139هـ = 1726م)، مخطوطة الخزنة العامة بالرباط، رقم: د 2152 ، يُعَدُّ للتحقيق.
- الدليل السياحي الأندلسي .

- نصوص تاريخية أندلسية (مجموعة نقول من كتابي: المُقْتَبَس والمتين (المفقود)، للمؤرخ ابن حيان القرطبي، مما لم يرد في المطبوع من مقتبسه. وتُكوّن هذه النصوص مجلداً كبيراً، تحت الإعداد.
- دراسات اجتماعية وحضارية، مكونة من عشرات البحوث والمقالات منشورة في المجلات والصحف العربية، لاسيما في دولة الإمارات.
- عشرات المقالات والبحوث والمقابلات المنشورة، في كثير من المجلات العلمية والنشرات والصحف، في العديد من البلاد العربية لاسيما الخليجية، بالذات دولة الامارات العربية المتحدة.
- مجموعة بحوث منشورة في عدة مجلات باللغة الانجليزية والإسبانية والإيطالية، تحت عنوان

■ (Studies on Andalusian History): وهي،

- ◆ “INTERMARRIAGE BETWEEN ANDALUSIA AND NORTHERN SPAIN IN THE Umayyad Period”, *The Islamic Quarterly* (published by “the Islamic Cultural Center”, Regent’s Lodge 146 park road, London N. W. 8, England), Vol. XI, Nos.1 / 2, 1387/1967.
- ◆ “AL-TURTUSHI THE ANDALUSIAN TRAVELLER, AND HIS MEETING WITH POPE JOHN XII”, *The Islamic Quarterly*, Vol. XI, Nos. 3 / 4, 1387/1967.

ثم نشر بالإيطالية في:

“*RIVISTA STORICA ITALIANA*”, NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. I, 1967, PP.164-173.

1. نقد (REVIEW)، لكتاب.

- ◆ “A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN”, W. MONTGOMERY WATT, *The Islamic Quarterly* , Vol. X, Nos. 3 / 4, 1386/1966.
- ◆ “POLITICAL RELATIONS BETWEEN THE ANDALUSIAN REBELS & CHRISTIAN SPAIN DURING THE Umayyad Period”, *The Islamic Quarterly* , Vol. X, Nos. 3 / 4, 1386/ 1966.
- ◆ “TWO UNKNOWN EMBASSIES FROM A FRANKISH MONARCH TO THE COURT OF CORDOBA DURING THE REIGN OF AL-HAKAM II”, *The Islamic Quarterly* , Vol. X, No. 1, 1386/1966.
- ◆ “CHRISTIAN STATES IN NORTHERN SPAIN DURING THE Umayyad Period”, *The Islamic Quarterly* , Vol. IX, Nos. 1 / 2, 1385 / 1965.
- ◆ “POLITICAL RELATIONS OF ANDALUSIAN REBELS WITH THE FRANKS DURING THE Umayyad Period” *The Islamic Quarterly* , Vol. XII, Nos. 1 / 2, 1388 / 1968.

- ◆ “DIPLOMATIC RELATIONS BETWEEN ANDALUSIA AND ITALY DURING THE Umayyad Period”, *The Islamic Quarterly* , Vol. XII, No. 3, 1388 / 1968.

نشر بالإيطالية في:

ITALIAN (Napoli, Italy), 1967, anno, LXXIX, fasc. 1. *RIVISTA STORICA*

- ◆ “IBRAHIM IBN YAQUB AL- TURTUSHI, ANDALUSIAN TRAVELLER”, *The Islamic Culture* (Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad – Deccan, India) Vol. XL, Nos. 1 / 2, Jan. 1966.
- ◆ “ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH CHRISTIAN SPAIN DURING THE Umayyad Period” *Journal of the Pakistan Historical Society* (Karachi 5, Pakistan), Jan. 1966, Vol. XIV, pt 1.
- ◆ “THE ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH THE VIKINGS DURING THE Umayyad Period” *Hesperis-Tamuda* (Rabat, Morocco) Vol. III, 1967.

ترجم إلى اللغة الإسبانية، مدريد، 2003، تحت عنوان:

- ◆ *Al-Ghazal y la Embajada Hispano-Musulman A los Vikinngos en el Siglo IX.*
- ◆ “*THE MORISCOS IN THE ANDALUSIAN REFERENCES AND MANUSCRIPTS*” (In the press).

المبحث الثاني

التاريخ الإسلامي في منظور الدكتور عبد الرحمن الحجي

أولاً : المفهوم والمسار

أولى الدكتور عبد الرحمن علي الحجي اهتمامه البالغ بالتاريخ الإسلامي عامة ، والأندلسي منه خاصة ، فقدم رؤيته له مفهوماً ومضموناً عبر مؤلفاته ومقالاته ومحاضراته .

وابتداءً ، ينظر الحجي للتاريخ الإسلامي وحضارته انه يمثل (كل ميادينه ومراحل وجوانبه وعصوره ، ابتداءً من السيرة النبوية الشريفة)⁽¹⁾ ، وبالتالي تغدو مدياته واسعة وشاملة ولا تتعلق بجانب منه دون آخر .

ويرسخ الحجي الارتباط بين التاريخ والإسلام (المنهج والتطبيق) ، ففي منظوره (ليس التاريخ الإسلامي تاريخ فكر وأحداث وظواهر اجتماعية وأوضاع سياسية ودول سادت ، بل أيضاً - وقبل ذلك - هو تاريخ عقيدة شاملة ، لها سماتها وخصائصها ومقوماتها المميزة)⁽²⁾ .

وانطلاقاً من هذا التصور ، تغدو معرفة التاريخ الإسلامي ضرورة للأمة الإسلامية وحتى لغيرها من الأمم . فتقديم التاريخ يجب أن يكون بأمر محقق وبروح متناسبة مع طبيعة الإسلام لأنه أحد أهم الروافد في تغذية الوعي الإسلامي الحاضر⁽³⁾ .

كما يتناول الحجي كتابة التاريخ الإسلامي ، مبيناً إنه لمن الصعوبة ان يكتب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية غير مسلم ، وان اكتست بعض كتاباتهم بجمال الإنصاف وأزالت بعض الإجحاف وقدمت شهادات علمية مهمة ، ذلك جانب إيجابي لا يهمل ولا يبعد ، لكن من الناحية الأخرى ، لا بد من القول ، إنه حتى المسلم - الذي لا ولاء كبيراً له ، ولا يغار بوضوح على إسلامه أو يرتبط به قوياً - لا يجيد كتابته⁽⁴⁾ .

إن المنظور الإسلامي الواضح الذي تعامل به الحجي مع التاريخ ، كان هو الأساس الذي انطلق منه لرسم صورته وتدوين مراحل ، وذلك وفق رؤية واضحة تربط اوله بآخره ، مهما ابتعدت المسافات ، وتعددت الكيانات والأشكال السياسية التي عبر عنها ، فإن (التاريخ الإسلامي ... حلقة متصلة وسلسلة متتالية متناسقة الأحداث والأجزاء ، متتابعة المجرى في البداية والهدف ، تنتظمها في كل ذلك صبغة واحدة اتسقت نهايتها مع البدايات وتوافقت في مخبرها مع المظهر)⁽⁵⁾ .

وهو يقرر أن (العالم الإسلامي واحد متوحد ، حتى حين تنقطع أجزاء منه عن باقيه ، سياسياً أو إدارياً ، فليست هذه سبب توحده ، بل الإسلام عقيدة وعبادة ، تشريعاً ووجهة ، هو الموحد المتفرد دوماً . إنه عالم واحد في كل احواله وفي بنية سكانه الإنسانية وأحواله الاجتماعية والعمرانية وغيرها من مظاهر الحياة الكثيرة المتجددة ، في عين المضمار والطريق النير والمسلك الخير)⁽⁶⁾ .

(1) الحجي ، عبد الرحمن ، مشروع مركز رعاية التاريخ الإسلامي ، مجلة المجتمع ، العدد 1985 ، 14 / 1 / 2012 ، ص 50 .

(2) الحجي ، عبد الرحمن علي ، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، ط3 (القاهرة : مكتبة الصحوة ، 1979) ، ص 13 .

(3) حوار مع مجلة المجتمع ، العدد 1712 ، 29 / 7 / 2006 ، ص 46 .

(4) الحجي ، عبد الرحمن ، كتابة التاريخ الإسلامي لمن ؟ ، مجلة المجتمع ، العدد 1972 ، 8 / 10 / 2011 ، ص 44 - 45 .

(5) الحجي ، نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، (دمشق ، بيروت : دار ابن كثير ، 1999) ، ص 47 .

(6) الحجي ، عبد الرحمن علي ، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، ط2 ، (بيروت ، دمشق : دار اقلم ، 1981) ، ص 8 .

وهذا التاريخ كان هدفاً للاستهداف ، وناله الظلم الكبير⁽¹⁾ ، ولقي (رغم نصاعته وسماحته حرباً عنيفة ضروس ، تزويراً وتغريباً وتدبيراً ، بأساليب ملتوية شَبهاً مفتراه ، بعد التجهيل والتهويل والتدجيل ، أظهرته أسود قاتماً ومهلهاً تالفاً ومخيفاً يقطر دماً منفراً مقززاً ، أولى به أن يكون مهجوراً مطموراً ، لا يستحق الاهتمام ولا حتى الاقتراب منه أو بذل الوقت لأجله ، دراسة ومتابعة وتأليفاً)⁽²⁾ .

ويقرر أن هذا الاستهداف يأتي (لأنه الجانب الذي بدت فيه الصورة العملية التطبيقية للإسلام. فالتاريخ الإسلامي هو تاريخ الشريعة الإسلامية التطبيقية الواقعي وكل انحراف عن الطريق السوي أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن تلك الشريعة، فدراسة هذا التاريخ هي دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية)⁽³⁾ .

وانطلاقاً من هذه الرؤى ، يقدم الحجي تصوراً متكاملاً لتأسيس مركزاً لرعاية التاريخ الإسلامي⁽⁴⁾ ، كما يرسم مخططاً شاملاً لما ينبغي أن تكون عليه المناهج التاريخية الدراسية (مواد ومفردات) وبما يتطابق مع جوهر هذا التاريخ وحقيقته ومنجزه⁽⁵⁾ .

ولا يخفي أن كتابة بعضاً من هذه الملاحظات جاء في وقت سيادة الدراسات الاستشراقية وغياب الدراسات البديلة الأصلية وحالة الانبهار بالنتاج الغربي الذي وضع الأسس والتصورات للكثير من الحقب التاريخية الإسلامية ورسخها لعقود طويلة ، مما اختلف اليوم بشكل بارز مع تنامي الدراسات العربية والإسلامية والمدونات الأكاديمية التاريخية الرصينة ، وجعل من المهم تحقيق المواءمة مع الأفكار التي يطرحها الحجي للوصول إلى رؤى مشتركة ومفيدة .

ثانياً : اضاءات منهجية

يمثل تسليط الضوء على منهج الدكتور عبد الرحمن الحجي مهمة شاقة وليست باليسيرة ، وذلك لثراء مكتبته التاريخية وتنوعها ، بين التحقيق ، والدراسة الأكاديمية المتخصصة ، والكتابات الثقافية العامة ، والمقالات القصيرة ، بل وحتى القصائد الشعرية .

لقد أخذ الحجي مكانته اللائقة بين رواد المدرسة التاريخية العراقية الأندلسية ، وهو حاز هذه المكانة بجدارة من جانبين : الأول الوقت المبكر الذي قدم فيه إسهاماته وتخصصه⁽⁶⁾ ، وثانيهما : التميز في دراساته ، ففي

(1) خصص الحجي سلسلة تحت عنوان (المظلومون في تاريخنا) في مجلة المجتمع الكويتية ، طبعت فيما بعد في كتاب خاص ، يراجع : العدد 1739 ، 17 / 2 / 2007 ، ص 66 ، وشملت دراسته : موسى بن نصير ، العدد 1740 ، 24 / 7 / 2007 طارق بن زياد ، العدد 1741 ، 3 / 3 / 2007 ، عبد العزيز بن موسى بن نصير ، العدد 1746 ، 1747 ، 4 / 7 / 2007 ، ص 66 ، عبد الرحمن الناصر ، العدد 1748 ، عباس بن فرناس ، الأعداد 1759-1760 ، الحسن الوزان ، المعتمد بن عباد الأعداد 1762 - 1765 ، يوسف بن تاشفين الأعداد 1778 - 1783 .

(2) الحجي ، ملحمة التاريخ والمؤرخ ، مجلة المجتمع ، العدد 1898 ، 17 / 4 / 2010 ، ص 47 .

(3) الحجي ، نظرات ، ص 20 - 21 ؛ ويستعرض الحجي خلال كتابه هذا ، وسائل الأعداء لتشويه التاريخ الإسلامي في الصفحات : (25 - 54) ، ومنها التشويه ، التجهيل ، التشكيك ، التجزيء ، والإهمال ، كما يعالج عدداً من الشبهات ومنها (دوافع المد الإسلامي وتعليلها بابتغاء المغنم / تفسير التاريخ مادياً / دعوى انتشار الإسلام بالسيف / التفسير القومي للتاريخ الإسلامي) المرجع نفسه ، ص 55 - 84 .

(4) ينظر عن هذا الموضوع : مجلة المجتمع ، العدد 1985 ، 14 / 1 / 2012 ، ص 50 - 51 .

(5) الحجي ، نظرات ، ص 167 - 181 .

(6) يقرر عبد الواحد ذنون طه هذه الريادة ، ينظر عن ذلك : التراث المغربي والأندلسي في مؤلفات المؤرخين العراقيين ، بحث منشور ضمن أعمال ندوة التراث المغربي والأندلسي التوثيق والقراءة ، (تطوان : 1991) ، ص 243 .

حين جاءت دراسة الدكتوراه بعد سنوات خمس من التفرغ الكامل في موضوع شاق وعسير - كما يصفه هو بنفسه - واعتماداً على مصادر باثنتي عشرة لغة⁽¹⁾، سجل حضوره الأكاديمي المهني منذ ستينيات القرن الماضي، فدرس مادة التاريخ الأندلسي منذ عام 1966، في جامعتي بغداد والرياض⁽²⁾.

ويمكن لنا أن نسجل هنا على سبيل الإيجاز والتركيز، وبعد مصاحبة لثراث الدكتور الحجي امتدت لأكثر من عقد من الزمان، أن نتاجه امتاز ب: التنوع، والتميز، والأصالة، والدقة، وتقديم التاريخ بأسلوب أدبي رفيع ممزوج بعاطفة جياشة وشاعرية متمكنة، وارتباط وجداني بالأندلس تملكه بشكل كبير، وقبل هذا وذاك، التزام صارم بقواعد التوثيق التاريخي، والتدقيق في مرويته، وعدم التسليم إلا بما قام على الدليل.

يقول الحجي : (التوثيق المؤتمن الصادق هو ألف باء في الكتابة العلمية ، ولا بد بعد ذلك من الأمانة في الحفاظ على هذا التوثيق ووضع المهمة في متابعة الحقائق على ضوءه حسب ما يرسمه الدليل الذي يحتاج إلى فهم عميق و رؤية شاملة و اعتبار لنوعية المجتمع و حياته و ارتباطه الذي جعله بهذه المكانة والحالة و الصفة)⁽³⁾.

ولم يكن هذا المنهج نظرياً فحسب ، فمن يتابع كتابات الحجي يلمس بشكل واضح وجلي أنه عمل على تقديمه بشكل تطبيقي بارز ، وكان كتابه المهم (التاريخ الأندلسي) خير شاهد على هذا الأمر ، إذ نلمس التأنّي في قبول الروايات التاريخية وعدم اعتمادها إلا بعد التوثق منها ، كما نلمس الدقة في تعريفات المصطلحات الأندلسية وحدودها والفاظها⁽⁴⁾ ، وتتبع خط سير حملة طارق بن زياد⁽⁵⁾، ناهيك عن الدقة البالغة في تثبيت مواقع المدن ، وسنوات الوفاة ، وأماكن وتواريخ المعارك الخ .

وبرز منهج الحجي التاريخي المتقن في النقاش التاريخي المتواصل بخصوص الكثير من الأحداث التاريخية المفصلية في الأندلس ، من ذلك تفكيك موضوع الاتصال بليليان والاستفادة من سفنه في عمليات فتح الأندلس⁽⁶⁾ ، ونفي حادثة حرق السفن وخطبة طارق بن زياد وباستفاضة وبراعة وعلمية فائقة⁽⁷⁾ ، ومناقشة ومناقشة سبب عبور موسى بن نصير ونفي ادعاء الغيرة من طارق بن زياد ، وخاتمة موسى وطارق⁽⁸⁾،

(1) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 7.

(2) المرجع نفسه، ص 8

(3) من اجابة للدكتور عبد الرحمن الحجي على مجموعة من الأسئلة التي قدمها الباحث له عبر البريد الالكتروني ، بتاريخ 2013/8/11.

(4) التاريخ الأندلسي ، 37 - 38 .

(5) المرجع نفسه، ص 63 - 67.

(6) تنقل الروايات التاريخية قصة يليان بتسليم مطلق ، عنها ينظر : مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، (القاهرة ، بيروت : دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني) ، 1989 ص 16 ؛ ابن القوطية ، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت 367 هـ) تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، (القاهرة : دار الكتاب المصري ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1989) ص 33 - 34 ؛ المراكشي ، أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647 هـ) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، (القاهرة : د. ت) 32 - 33 ؛ ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد 712 هـ) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، تحقيق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد معروف (تونس : دار الغرب الإسلامي ، 2013) ، ج 2 ، ص 9 - 10 .

(7) تنظر الصفحات 45 ، 47 - 48 ، 57 - 61 ؛ وللمراجعة حول حادثة حرق السفن وخطبة طارق بن زياد ، عنان ، محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس ، ط 4 ، (القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1997) ، ج 1 ، ص 46 - 49 ؛ السامرائي ، خليل إبراهيم وآخرون ، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، (بيروت : دار الكتاب الجديد ، 2000) ، ص 30 .

(8) تنظر الصفحات ص 85 - 90 ، 126 - 128 ؛ وعن موضوع دوافع موسى بن نصير للعبور إلى الأندلس ، يراجع : مجهول ، اخبار مجموعة ، ص 24 ؛ المراكشي ، المعجب ، ص 34 ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص 35 ؛

والنتبع التاريخي المتأني والدقيق لموقعة بلاط الشهداء بين الرواية الإسلامية (المختزلة والمختصرة) والأوربية (المتوسعة والمستفيضة)⁽¹⁾، والتي يخلص فيها إلى أن (قصة الغنائم أسطورة لا أصل لها . وهذا مع مجانبته لكل ما عرفناه عن الفتح الإسلامي والتمسك بأهدافه العليا القائمة على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته والخطط المحكمة المتبعة فيه ، ولما ألفناه من الفاتحين في فرنسا)⁽²⁾ ، والدعوة للتوحد زمن الطوائف ومن كان وراءها⁽³⁾، وتحليل فكرة استدعاء المرابطين⁽⁴⁾ .

كما نجده يجرّد حملة شارلمان وتعاونيه مع الاعرابي والانصاري من الهالة الكبيرة التي رسمتها المصادر الأوربية اعتماداً على الركون والتدقيق في المصادر الإسلامية⁽⁵⁾، وفي كثير من الأحيان يورد النصوص كاملة من مصادرهما ثم يناقشها ويقارن بينها كما فعل في موضوع نموذج هجوم النورمان⁽⁶⁾، في حين يترك في كثير من المفاصل تساؤلات دون اجابة لعدم توفر النص الذي ربما ضاع ، وهو تأكيد على منهجه الذي كرره لأكثر من مرة ان لا يقطع بأمر دون دليل .

ويعلل الحجي هذا الجانب بأن (كتابة التاريخ الاسلامي و منها الاندلسي مليء بالشبهات الذي اظهر الانتكاسات مكبرة او مخترعة احيانا و بالمقابل الكثير من الانجازات و المفاخر مدفونة و محجوبة فهي بحاجة الى اكتشاف ، ومنهجي في كتابة التاريخ ما يوصلني اليه الدليل ولا احمي مجروحا او اخفي مسيئاً بل اظهره قبل اي احد. و لان المفاخر في تاريخنا هي الغالبة و ان اخفقت او اخفيت او جهلت)⁽⁷⁾.

ولعل هذا ما يفسر تأجيل الحجي لتعليل بعض الوقائع الأندلسية أثناء عرضها خلال صفحات كتابه التاريخ الأندلسي ، وذلك (لعدم وجود المعلومات الكافية لإصدار حكم و فهم أسبابه و معرفة تأثيره، كما جرى في

ويعلق الدكتور حسين مؤنس كذلك على ما تضمنته الروايات التاريخية بهذا الخصوص : (... إننا نستبعد أن يكون هذا الشعور - أي الغرور والحسد والطمع - أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارفاً كان طبعة ر جلاً متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاة وأميره ، وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول .. ولا يعقل ان يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها .. وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ..) فجر الأندلس ، ط 4 (القاهرة : دار الرشاد ، 2008) ، ص 79

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 193 - 203 .

(2) التاريخ الأندلسي ، ص 197 .

(3) استغرق النقاش في كتابه التاريخ الأندلسي ، من ص 338 - 344 ؛ وفي ص 352 يتابع نماذج أخرى دعاء لوحدة الأندلس زمن الطوائف .

(4) التاريخ الأندلسي ، ص 393 - 399 .

(5) التاريخ الأندلسي ، ص 218 - 226 ؛ وعن هجوم شارلمان ومناقشة الآراء الخاصة به ، يراجع : مجهول ، اخبار مجموعة ، ص 103 - 104 ؛ العذري ، أحمد بن عمر بن أنس (ت 478 هـ) نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، (مدريد : منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، د.ت) ، ص 25 - 26 ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (808 هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، (بيروت : دار الفكر ، 2000) ، ج 4 ، ص 158 ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ج 1 ، ص 168 - 184 ؛ السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص 128 - 130

(6) الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 227 - 240 ؛ والنورمان أو (الفيكنج) Vikings من الأمم البحرية العريقة التي تسكن في البلاد الإسكندنافية ، أي السويد والنرويج والدنمارك الحالية ، والجماعات التي تنتمي إلى الدنمارك قامت بمهاجمة السواحل الأندلسية على فترات مختلفة بدءاً من عام 229 هـ في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب ، ص 131 - 133 ؛ وعن هذا الموضوع يراجع : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص 78 - 81 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج 2 ، ص 101 - 103 ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ج 1 ، ص 261 - 264 .

(7) من اجابات الحجي على اسئلة الباحث ، بتاريخ 2013/8/11

الحديث عن الحاجب المنصور، إذ لدينا كتاب لابن حَيَّان خاص بالدولة العامرية و كتاب آخر مثيل له لغيره و قلة المعلومات أو تشابكها و وقوعها في مجال الحديث عن قضية محددة. و كذلك كما جرى في الحديث عن الأحداث التي تلت الدولة العامرية و أدت إلى حالة الطوائف⁽¹⁾.

ويبرز الدكتور الحجي في ميدان تحقيق التراث الأندلسي ، وهو جانب مهم ، فهو - كما يقرر عبد الواحد ذنون طه ، ينفرد تقريباً في هذا الحقل المهم من دراسات المغرب والأندلس، [يقصد بين المؤرخين العراقيين] ... واتبع منهجاً علمياً ممتازاً في تحقيقهما ، من حيث التصدير بمقدمات علمية ، وتوثيق النصوص ومقابلتها ، وشرح المصطلحات الغامضة . وأعقب ذلك كله بفهارس فنية دقيقة ، جعلت الاستفادة من النصين عالية جداً⁽²⁾ .

وهو ما ثبته الحجي بنفسه حين تحدث عن منهجه في تحقيق كتاب المقتبس لابن حيان ، فيقول : (إنني بذلت جهداً كبيراً في قراءة كلماته ومحاولة ضبطها ، وخاصة الأعلام الشخصية والجغرافية ، كما علقت على قسم منها وشرحت كثيراً من الأحداث الواردة ، وأحياناً بصورة مقتضبة ، لكنني أوردت عدة مصادر للرجوع إليها ، وأعطيت المقابل الفرنسي (وهو الإسباني عموماً) للأعلام الجغرافية الأندلسية وللأسماء الشخصية غير العربية ، كما سلطت الضوء على العلاقات السياسية والسفارات الواردة من دول الشمال الإسباني إلى قرطبة⁽³⁾ .

ويلفت الحجي الانتباه إلى جزئية نجد من المهم ذكرها ، وهي مدى الدقة في تدوين مؤلفاته والتي تصل حداً من الصرامة ألا تحدث تغييراً على ما كتب ولو مضت عليها السنوات لشدة ما تثبت في تدوين معلوماته ، ويقول : (إن طريقتي ألا أغير فيما سبقت كتابته إلا الضروري جداً أو إضافة مصادر جديدة أو ظهور أمور كانت مجهولة أو تقديم معلومات ذات أهمية في الموضوع نفسه تقتضي الإشارة إليها أو التمويه بها خدمة للموضوع وتوضيحاً له⁽⁴⁾ .

ومن منهجه الملفت، اقتراح بعض المواضيع للدراسة عليها لأهميته التي تنبه لها مبكراً، ومنها على سبيل المثال، موضوع انتشار الاسلام الذي يواجه فقراً في المعلومات ، والدعوة إلى توحيد الأندلس أيام الطوائف، والذي يقرر بانه يستحق أن تكتب فيه رسالة جامعية ، والحروب الصليبية في الغرب الإسلامي ، والذي يعد جديراً بعناية الدارسين⁽⁵⁾.

كما كان حريصاً على تضمين مدوناته الخرائط اللازمة ، وذكر شجرة نسب الشخصيات التي يراها مهمة ، ووجدنا نماذج كثيرة جداً على ذلك في كتابه التاريخ الأندلسي ، منها - على سبيل المثال لا الحصر ، ابن

(1) من اجابات الحجي على اسئلة الباحث ، بتاريخ 2013/8/11

(2) طه ، التراث المغربي والأندلسي ، ص 248 - 249

(3) ابن حيان القرطبي ، حيان بن خلف (ت 469 هـ) ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت : دار الثقافة ، د. ت) ، ص 18 من المقدمة ؛ ومن خلال مراجعة المقتبس ، نجد الحجي قد عمل فعلاً على اغناء الهوامش بالتفاصيل التاريخية ، وختمه بتعليقات امتدت من ص 247 - 259 ، وفيها سلط الضوء على عدة جوانب منها (النورمان ، كلمة الوزير ، متابعة سياسة حاكم قشتالة غرسيه بن فردلند ، السفارات زمن المستنصر) وكذلك خصص فقرة لاستدراكات و اضافات امتدت من ص 260 - 264 .

(4) الحجي ، عبد الرحمن ، الكتب والمكتبات في الأندلس ، (أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، 2007) ص 14 .

(5) يراجع الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 145 ، ص 349 ، ص 374 ؛ وقد كتب في عدد من هذه المواضيع لاحقاً ، منها على سبيل المثال : رمضان ، عبد المحسن طه ، الحروب الصليبية في الأندلس ، (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية) ؛ جاسم ، بهار احمد جاسم ، موسى ، سماهر محي ، أبو الوليد الباجي وأثره في الدعوة لتوحيد الأندلس ، مجلة ديالى ، العدد الثلاثون ، 2008 .

القوطية ، بني قومن ، بنو لبابة ، عبد الرحمن الداخل ، مغيث الرومي ، عبيد الله البلسني ، حكما مملكة ليون وغيرها كثير⁽¹⁾.

لقد جاء منهج الدكتور عبد الرحمن الحجي مبيناً على قاعدة التوثيق التاريخي ، واعتماده أساساً للبحث والدراسة ، مثلما إن رؤيته الإسلامية لحوادثه ومجرياته ومنحياته بقيت حاضرة على الدوام في تناوله لها .

(1) تنظر الصفحات : 160 ، 167 ، 168 ، 215 ، 247 ، 252 ، 272 - 273 . .

المبحث الثالث : المنظور الإسلامي لتاريخ الأندلس

عند الدكتور عبد الرحمن الحجي

أولاً : هوية الأندلس

تميز الدكتور عبد الرحمن الحجي بمنظوره الإسلامي الواضح للتاريخ الأندلس ، فبه تعامل معه ، وعلى أساسه فسر أحداثه ، ووفق مقتضياته قدم رؤيته لما مر عليه من تقلبات وتحولات انتهت بقصة الضياع المؤسفة.

ويبين الحجي ، ان (التاريخ الأندلسي لا هوية له إلا اسلاميته و هذا أساسي الاعتبار في كل دراسة تتناول جانباً منه وهو ما يجب على الباحثين النظر اليه، و هذا ما يحتاج أن يشترك فيه مع بقية العالم الاسلامي، و هي واضحة في الأندلس أشد الوضوح لمن يتمعن في دراسته عن قرب و أناة و عمق. و لولا هذه الهوية ما كان هنالك أندلس، و هذه الصفة هي التي قادته إلى كل ما انتج و ما سجل و إلى بقائه كل تلك المدة أمام ما واجهه داخليا و خارجيا، و هو الأشد الأوضح)⁽¹⁾.

وهذه الرؤية الإسلامية هي التي ميزت الدكتور الحجي بين غيره من المتخصصين في التاريخ الأندلسي ، بما جعله يتصدر من يمثل هذا الاتجاه في تناول أحداثه وقضاياها ، وهو ما انتبه له أحد الدراسين حين ذكر معلقاً على كتابه التاريخ الأندلسي : (ويلاحظ على منهج الحجي في هذا الكتاب - وفي بقية مؤلفاته الأخرى أيضاً - الالتزام الواضح بالخط الإسلامي ، ومحاولة ربط الأحداث وتغيرها وفق العقيدة الإسلامية السمحة ، وهو امر على غاية كبيرة من الأهمية)⁽²⁾.

ثانياً : وقفات في قضايا تاريخية

سنحاول هنا ان نحدث مقارنة لأراء الدكتور الحجي وبما يعكس منظوره للتاريخ الأندلسي ، وانطلاقاً من مرحلة الفتح ، فهو يقرر بوضوح أنه (لم يكن فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأندلسية حدثاً عسكرياً وسياسياً فحسب بل - الأهم من ذلك - أنه كان فتحاً إنسانياً وبداية لحدث حضاري فريد لإسبانيا وأروبا على السواء . قضى الإسلام في إسبانيا على الأوضاع السيئة التي سبق وصفها قبل الفتح فلم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض أو العبيد (الرقيق) ، حيث تحرر كل من دخل منهم الإسلام ، وقد دخل أكثرهم - أو كثرة منهم - الإسلام)⁽³⁾.

و(كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيرية (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً ، حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم ، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم . وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود ، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المد الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار . ولما وصل تيار الفتح إلى شمال إفريقية ، كان المد الإسلامي المكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة . ومن هنا ما كان منتظراً من هذه القوة الجديدة - التي دفعت بالقائمين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار - ان

(1) من اجابات الدكتور الحجي على اسئلة الباحث ، بتاريخ 2013/8/11 .

(2) طه ، التراث المغربي والأندلسي ، ص 248 - 249 ؛ ويقرر طه أن ذلك (يصح على بعض الحوادث ، إلا أن تعميم ذلك ، والمغالاة فيه يمكن أن يقود أحياناً إلى الاستطراد والخروج عن السياق التاريخي) وهذه النتيجة يخلص لها دون بيان نماذج للدلالة عليها او حتى مناقشتها .

(3) الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 143 .

تقف عند شواطئ إفريقية الشمالية الغربية . فكان طبيعياً ومتوقفاً عبور هذا المد إلى إسبانيا ، عبر المضيق (المجاز أو الزقاق) (1).

ولما كان الفتح فكرة ومضموناً هو فعل إسلامي ويمثل امتداداً لحركة الفتوحات الكبرى ، فقد (كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيرية من المسلمين البربر الذين تحمسوا لهذه العقيدة ، حباً لها وتضحية من أجلها ، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه . هذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزورة ، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى اعتبار الغنائم سبباً في هذا الفتح ، وهو أمر مضحك ومثير . تاريخ الفتوحات الإسلامية شاهد ثابت قوي في بيان هذه الحقيقة الساطعة . وبمتابعة تاريخها ينهار هذا الوهم وامثاله ، مما لا يجل أي لا يحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي ... يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الإيبيرية هي فكرة إسلامية تماماً . بل يروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان ..) (2).

ويقف الحجي طويلاً محلاً نجاح الفتح الإسلامي للأندلس ، ومدى ارتباطه بالوضع الداخلي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، فيقول : (كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي ، والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار ، نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد . لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع ، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية ، بل كان بإمكانها أن تصد جيشاً مهاجماً وتحاربه وتقف في وجهه ... بالإمكان أن تتوفر للدولة سطوة سياسية وقوة عسكرية مع سوء في الداخل أو هبوط ما في حياة الناس ... فالقوة المتمكنة التي لا تحكمها مثل ، ولا توجهها عقيدة ، تتحول إلى قوة غاشمة وجبروت قاصم لا سيما بعد أن تحوز أي تفوق أو تكون لها غلبة على أحد) (3).

ويخلص إلى إننا (حين نتحدث عن الفتوحات الإسلامية وقوتها وسرعة مسيرها فإننا لا نشير بذلك إلى تفوق المسلمين في القوة العسكرية والسلطة السياسية ، ولا نعلل ذلك بأي تفسير أو نرجع انتصار المسلمين إليه غير العقيدة ، لم يكن المسلمون متفوقين بالقوة الحربية أو المجد العسكري في قوتهم المادية أو تنظيماتهم الحربية أو إعدادهم الفني . بل كانوا دوماً - في فتوحاتهم - أقل في الاستعداد والإعداد ، من عدوهم ، وأدنى منه في الجمع العددي والعُددي بكثير . وهو أمور ما كانوا - تفضيلاً - يحفلون بها أو يعولون عليها ، ولا تأتي عندهم في طليعة مقومات الانتصار . فليست هي المعتمد في الفتح ولا فيما بعده . غن الفتح فتح العقيدة التي سرعان ما يدخل الناس رحابها أفواجا . فانتصار الإسلام وفتوحاته معجزة أخرى تضاف إلى أخواتها ... لا يرى فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وانتصار الإسلام المذهل فيها - كما في غيرها - في ظل أحوالها قبل الفتح ، بل بصورة رئيسية فيما امتاز به الجيش الإسلامي من عقيدة يفتديها بالنفس ، وفي قيم إنسانية حملها الفاتحون ، وعبروا عنها في سلوكهم ، أفراداً وجماعات ، أو حكاماً ومحكومين ، وحتى غالبين ومغلوبين .

ما من شك أن لحالة إسبانيا أثراً سنياً على مقاومتها . إلا أنه مهما قيل في ضعفها وسوء أحوالها فلا بد من اعتبار نوعية الجيش الإسلامي وحبه لإعلاء كلمة الله - سبحانه - التي افتداها بالحياة . هذه النوعية استطاعت اتمام فتح الجزيرة الإيبيرية في أربع سنوات ، وهو عمل لا يمكن أن يتكرر بسهولة بدون هذه النوعية) (4).

(1) التاريخ الأندلسي، ص 43 .

(2) التاريخ الأندلسي، ص 43 - 44 ، وكذلك بنفس المعنى ص 53 - 54 - 55 ، ص 120 - 125 ، ص 172 - 173 ؛ وعن دوافع الفتح يراجع: بيضون ، ابراهيم ، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92 - 422 هـ ، ط 3 (بيروت: دار النهضة، 1986) ص 70 - 71 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 55 - 64 ؛ السامرائي وآخرون ، تاريخ العرب وحضارتهم ، ص 23 - 24 .

(3) التاريخ الأندلسي ، ص 30 - 31 ، وفي ذات المعنى ص 32 .

(4) المرجع نفسه، ص 33 - 35.

ويرى الحجي ضمن مراجعة الاستراتيجيات العسكرية الإسلامية في الأندلس ان التأكد من فتح الأندلس وإزالة جيوب القوط في شمالي الجزيرة كان أولى من توجيه المد خلف البرت ، فهذه جيوب كانت نواة دويلات ثم دولة إسبانيا⁽¹⁾، وينبه إلى إنه كان (الأفضل لو اتجه ولاة الأندلس إلى تطهير أرض الجزيرة ، قبل - أو مع - الاتجاه إلى ما وراء البرت)⁽²⁾.

ويناقش الحجي بإسهاب وروعة موضوع انتشار الاسلام في الاندلس ، وينبي رؤيته على جمع الأدلة وقياس على واقع الفتوحات الإسلامية ويفترض انه تحقق مثلها لأن اسلام أهل الأندلس بهذه الكثرة لم يأتي عبثاً ذاكراً دور التابعين الذين دخلوا الأندلس ، ودور المصاهرات مع سكان البلاد وحسن المعاملة ، ويقول : (نحن نجهل جهود المسلمين غير الحربية (الدعوة بالمسلك والقول) إلى الإسلام ، بعد الحرب وخلالها . وهو امر مستمر في السنوات التالية من حياة الأندلس الإسلامية . وهذا موضوع ما يزال بحاجة شديدة إلى البحث والدراسة ، ليس في الأندلس فقط بل في تاريخ الإسلام وفتوحاته وانتشاره عموماً . تلك مسألة مجهولة في كثير من جوانبها ، وهي بحاجة إلى التماس نصوصها في بطون الكتب وجمع أشتات هذه النصوص)⁽³⁾.

ويسلط الضوء على موضوع استقرار القبائل العربية وقبائل البربر ، نافياً ما يشاع من عملية استئثار بالأرض ، ف (ليس صحيحاً من ان المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي . لعل سكنى بعض النواحي الجبلية من قبل مجموعات من مسلمي البربر قد تم بناءً على رغبتهم ، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه في الشمال الإفريقي ، حيث بعض مناطقهم جبلية مرتفعة معروفة ، على الشاطئ الشمالي (البحر المتوسط) والغربي (المحيط الأطلسي) ولدينا عدة نصوص تؤيد هذه الوجهة : إن نواحي سهلة خصبة عديدة - بعضها غير جبلية - سكنها مسلمون من البربر ، مع غيرهم من المسلمين ..)⁽⁴⁾ ، إن (الأمور سارت حسب الرغبة التي كان لنوع الحياة السابقة وطبيعة الأرض المعتادة لهم . كانت الأرض الجبلية تناسب البربر ، فاخترها منهم من أراد " إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى ، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى ، زيادة على ان بعض المسلمين العرب سكنوا الجبال وبعض المسلمين البربر سكنوا السهول ، وقد سكن المسلمون - عرباً وبربراً - سوية بأي نسبة ، فهم إخوة في الله تعالى ، ألف بينهم سبحانه بهذا الدين)⁽⁵⁾.

كما قدم الدكتور عبد الرحمن الحجي ، رؤيته بعد كل تفصيل كان يقدمه للعهد التي مرت على الأندلس ، وحاول استخلاص أبرز سماتها ، فكان عهد الولاة يمثل (التحول والانتقال إلى حياة جديدة خيرة ، فيها التنور والامتداد في الغروس الثابتة النيرة)⁽⁶⁾، وهو (عهد تأسيس .. مثل بداية الوجود الإسلامي في تلك البقعة .. كانت أيامه أيام غرس لم يحن بعد موسم حصاد كبير من انتاجه الفكري والعمراني الذي وضعت أسسه وتهاى مجاله)⁽⁷⁾.

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 135

(2) المرجع نفسه، ص 269 ، ويربط هذا التوجه مع التغير المستمر للولاة وبعد الأندلس وانقطاعها .

(3) التاريخ الأندلسي ، ص 156، وينظر كذلك ص 145 - 172 ؛ وعن موضوع انتشار الإسلام في الأندلس ، يراجع : طه ، عبد الواحد ذنون ، الإسلام في المغرب والأندلس كيف انتشر ولماذا؟ (بيروت: دار المدار الإسلامي ، 2009) .

(4) الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 137 - 139 .

(5) المرجع نفسه، ص 139 ، وعن موضوع توزيع القبائل ينظر : طه ، عبد الواحد ذنون ، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس ، (بيروت : دار المدار الإسلامي ، 2004) ص 173 - 284 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص 114 - 116 .

(6) التاريخ الأندلسي ، ص 131 .

(7) المرجع نفسه، ص 212

كما ثبت رؤيته لسنوات حكم الدولة العامرية ، وعدّها امتداد للخلافة ، إذ (يرى بعض المؤرخين أن الخلافة تنتهي بموت الحكم المستنصر ، لكنني اعتبرت الدولة العامرية - في هذا البحث - امتداداً للخلافة ، إذ كانت تحكم باسمها وتحتمي بظلمها) ⁽¹⁾ ، ومع ذلك فهو يرى أن : (الحاجب المنصور ... كانت للأندلس في عصره قوة عسكرية كبيرة ، ولكن عهد هذا الرجل كان ذريعة للتدهور بسيسته الداخلية الفردية الكابنة المستبدة والخارجية المثيرة للعداوة والبغضاء . وبانتهاء الدولة العامرية في 400 هـ / 1009 م بدأت الفتنة الحالقة التي تمخضت عن قيام دول الطوائف حيث ضاعت وحدة الأندلس وقسمت إلى حوالي عشرين إمارة . وكان هذا الضياع نتيجة لفقدان الخط الخلقي المسلم المتميز) ⁽²⁾ .

ووصف عصريّ الفتنة والطوائف واحوالهما بألم واضح نتيجة لما شهدا من أحداث ، فقد (عاشت الأندلس - بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر - سنوات صعبة من الفرقة والتنافس . حاول عدد من المسؤولين المخلصين - حتى سنة 422 هـ (1031 م) - استمرار وحدته وإعادة خلافته ، وبذلوا في ذلك الجهود الكبيرة ، دون جدوى . فانتابت الأندلس حالة مريضة تبعث على الأسى . عندها يبدأ قيام الطوائف ، حين تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ .) ⁽³⁾

ويفصل بالقول (هكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء ، اتصف عدد منهم - في بعض تصرفاته - بصفات الأثرة والغدر ، هانت لديهم معه مصالح الأمة وتركت دون مصالحهم الذاتية . باعوا خلقهم (وبلادهم) للعدو المتربص ، ثمناً لبقائهم في السلطة . أصاب الأمة الضياع بقدر ما ضيعوا من الخط الخلقي المسلم . انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته . في مثل هذه الحالة تظهر العصبية والنزاعات التي تؤدي إلى التشتت والضياع ... لكن هذه الحال لم تكن تخلو من إشراقات وضياء ، حين تلقى عوامل الخير الأصلية الكامنة في النفوس وتدعو إلى الجهاد لمصلحة الإسلام . فتلقى بعوامل الفرقة والآفاق الضيقة جانباً ... لو وضع هؤلاء الأمراء المهازيل - رغم اختلافهم - مصلحة الأمة أولاً ، ووجد بينهم نوع من العهود التي تقوم على المسالمة والتعاون ضد كل خطر خارجي ، لكان الأمر مختلفاً . لكنهم راحوا يستعينون بعدو أمتهم المتربص - الذي يتمنى هلاكهم جميعاً - ضد بعضهم البعض ، ولقاء دفع إتاوة وتنازل عن حصون ومدن . ولعل ما أصاب الأندلس بسوء فعالهم وسقم خلقهم كان أكثر مما أصيب به بقوة عدوهم . فالاستعانة بالعدو سنة سيئة وجدناها تتكرر لدى آخرين من بعض الحكام) ⁽⁴⁾ .

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 299 - 300 .

(2) الحجي ، عبد الرحمن ، أندلسيات ، المجموعة الثانية ، (بيروت : دار الإرشاد ، 1969) ، ص 114 ، ويقول ابن عذاري في وصف سياسة الحاجب المنصور : (فأخذ ابن أبي عامر في تغيير سير الخلفاء المروانية في استرجار الأمر لنفسه وسبك الدولة على قلبه ، فأداه ذلك إلى مضادة ما كانوا عليه ، فعوض باللين غلظة ، وبالأناة بطشة بالموادعة محاربة) البيان المغرب ، ج2 ، ص 265 .

(3) الحجي ، أندلسيات ، المجموعة الثانية ، ص 323 .

(4) أندلسيات ، المجموعة الثانية ، ص 325 - 326 ، وصف العديد من المؤرخين مرحلتي الفتنة والطوائف ، إذ يقول ابن حيان القرطبي عن الفتنة بأنها : (الفتنة البربرية الشنيعة المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤتلة ، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية) (ابن بسام الشنتريني ، ابو الحسن علي ، (ت 542 هـ) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، (بيروت ، دار الثقافة ، 1997) ، ق 1 م 2 ص 576 - 578 ؛ كما نظر لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ) إلى زعماء تلك المرحلة على إنهم (ملوك الطوائف ، والثوار أولي البهرج الزانف) أعمال الأعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام (الجزء الخاص بالأندلس)، تحقيق ليفي بروفنسال، ط 2، (بيروت : دار المكشوف 1956) ، ص 3 .

ويذكر تخاذل زعماء الطوائف في نجدة طليطلة ، وما شاع من شعر وقتها يدعو للرحيل من الأندلس والزهد بها ، عاداً إياها دعوة للتخلف عن نصرتها⁽¹⁾.

ويقيم الحجي مرحلتين المرابطتين والموحدين بذات النظرة الإسلامية التي عرف بها فهاتين القوتين الفئيتين غنما كان لها دور مهم في إمداد وانعاش الوجود الإسلامي في الأندلس ، بل وتحمل أعباء الحفاظ عليها حتى كان تلك المهمة سبباً في نهايتها .

ويثبت الحجي فكرة تتابع الكيانات السياسية الإسلامية وأثره الايجابي ، ذلك إن (تتابع الدول والسلطات في المغرب والأندلس - إثر ضعف السابق والنتائج امره ، لتحلق به أخرى فنية قوية - فيه معنى آخر ، هو : التجدد في هذه الأمة المسلمة . إنها تشير إلى الحيوية المستمرة ، ما دامت إلى دينها راکنة ومعانيه فيها متمكنة ، مهما أصابها من ضعف في بعض الجوانب ، وتراكت عليها عوامل في حيز من عالمها أو ردها من حياتها المتطاولة ، فطالما كانت بوارق الأمل تبدو من بين ظلمات اليأس ويأتي النصر دون مخالفه)⁽²⁾.

ويقول : (استغرق هذا التعاون - من المرابطين لإخوانهم الأندلسيين - كثيراً من طاقة الدولة المرابطية . دعاها لبذل الجهود المتوافرة المتتابعة ، في الرجال والمال وامكانيات الدولة الأخرى ، بكل صدق وإخلاص واهتمام . تسببت هذه التضحيات والبذل والجهد تكليف الدولة وتقديم طاقاتها وإنفاق قوتها. مما أدى - وبسبب عوامل أخرى - إلى عدم استطاعتها النهوض بالعبء والاستمرار في أداء الواجب ، فدالت . كان ضعفها ثم سقوطها سبباً واضحاً الأثر في إلحاق الضرر بالأندلس وضياح العديد من مدنها ، حتى قبض الله دولة الموحدين لتقوم بنفس المكان . الدافع في كل ذلك حماية الإسلام وأهله ودولته من الأندلس ، قاموا به جهاداً في سبيل الله من غير ابتغاء لسلطان أو استحصال رقاع من الأرض أو ذكر عليها ، بل استجابة لواجب الدين ونصرة لإخوانهم))⁽³⁾.

ثم (ورث الموحدون دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، ووصلت دولتهم مستوى عالياً من القوة . وشيدت للفضائل صروحاً وأسهمت في الاستمرار بالعلم والمعرفة وحرس الحضارة الإسلامية في بقعها وحمت كيان الإسلام في الأندلس)⁽⁴⁾.

أما مملكة غرناطة ، فبحث بعناية فائقة حالها وسبب ثباتها لمدة قرنين ونصف على الرغم من صغرها وضعف حالها ، ويؤكد انها عمرت (رغم الصعوبات المتعددة في الداخل والخارج - ما يزيد على قرنين ونصف . توالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً) ، وتمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات ممتازة . كما ظهرت بغرناطة شخصيات سياسية ذات كفاءات عالية وقدرات ممتازة ،

(1) ينظر التاريخ الأندلسي ، الصفحات : 330 ، 332 ، 368 ، 333 ؛ ويجيب ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) عن هذه المرحلة بالقول : (وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا امر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهي فتنة سوء أهلك الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب ، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد ، للذي ترونه عياناً من شنه الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم . وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طوارق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استئدام نفاذ أمرهم ونهيمهم) ، رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، ط 2 ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات ، 1987) الجزء الثالث ، رسالة التلخيص لوجه التلخيص ، ص 173 - 174 ؛ ويفصل ابن حزم في الصفحات التالية موضوع المأكل والملبس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(2) الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 511 - 512 .

(3) التاريخ الأندلسي ، ص 443 .

(4) المرجع نفسه ، ص 457 .

ادت كثيراً من واجبها نحو البناء . فضلاً عن اهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى ، وعلى تعدد المستويات كلها ، عاونت في البناء والحفاظ على هذه البقعة الأندلسية الصغيرة . ربما كان بالإمكان أن تستمر الأندلس في الوجود ، لكن العوامل الداخلية ثم الخارجية ساقتها إلى تلك النهاية المروعة الكئيبة . فاندفعت إلى نهايتها ، حين سقط سلطان المسلمين وكان انتهاؤهم سياسياً . لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن سياسة التعصب المقيت والحد المميت - التي عاملت بها سلطات إسبانيا النصرانية الغالبة بقايا المجموعات الأندلسية المسلمة المغلوبة - قضت على وجود المسلمين ، بل حرم بعضهم حتى البقاء ، فكانوا كعمة للفناء . لاقوا خلال ذلك أسوأ ما عومل به مغلوب ، لا سيما من له عند الغالب أياد بيضاء سلفت ، سواء بحسن المعاملة إياه أو بغمره بإحسانه على أفانين ، وفي الميادين كافة .. حقيقة أن الضغط من الخارج كان قوياً ومستمراً ، أنك قوى مملكة غرناطة ، واكل كثيراً من طاقتها ، مما كان يجعل دفعه شاقاً وصعباً تبدو مقصرة فيه . ويظهر أن العدو نال منها كثيراً في اوقات كانت تستقرغ قواها فيما بينها في نزاعات داخلية . فذهبت إلى مصيرها المأسوف ومصرعها المبكي . (1)

ويعزو الحجي سبب ثبات مملكة غرناطة إلى مجموعة مهمة ، وهي :

1. إن ما ضمته مملكة غرناطة كان أبعد - مكاناً - عن الوقوع في يد عدو الأندلس ، فهي أبعد عن تناوله ، مع مناعة في الموقع ، بجانب قربها من عدوة المغرب ، وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة ، يقف حائلاً دون الاستعانة بإخوتهم في المغرب وبقية الشمال الإفريقي .
2. ان موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية - التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال - لم يدعها تعيش طوال / سنيها وحيدة . بل كان الأخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين . طالما جاهدوا صفاً واحداً لدرء الخطر ، لا يبخلون بتضحية : استجابة لإخوة الدين ورغبة في نصرتهم مجاهدين ، وليس وراء ذلك مغنم.
3. لما قامت مملكة غرناطة ، بعد ان لاح لمسلمة الأندلس شبح الفناء ، اعتبروها ملاذاً ، به يحتمون وإليه يلجئون .. فتجمعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان ، حربياً كان او مدنياً .. وهياً الرجال تحميها من الأخطار
4. لا تبدو - الأسباب الثلاثة الأنفة - كافية لتعليل وقوف غرناطة ، مجردة من معانيها الأصلية وأطرها الحقيقية ذات الطبيعة الواحدة . .. ذلك المقدار الذي بقي من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حياً وحياة حقيقية . هو الذي جمّع هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة ، والاستعداد للبذل ، وفتق القدرات ورفع الهمم .. إنه يوضح حقيقة اللغز في ذبالة تبدو قريبة الانطفاء إذا بها تتجدد ، وظروفها شاقة وما حولها عات مدمر ، لتستمر في الاشتعال ما دام يسري فيها هذا المعنى الأصيل . ويوم ذوى ، ذبلت ثم اطفئت بسهولة رغم وجود بعض العوامل السابقة ، مجردة من معناها ذاك (2)

وينوه إلى أهمية بناء القوة الذاتية لمملكة غرناطة دون الاعتماد الكلي على النصير المغربي ، (فقد كان الأولى والأحرى أن تكوّن لنفسها من القوة الذاتية ما يعينها على البقاء .. الأندلس - مثل صقلية وغيرها ، في مختلف العهود - كان الضعف يعني الفناء ، إذ هو مجلبة له . كان ذلك وحده يكفي دافعاً لتلافي العوامل المؤدية له ، وإن ذهاب سلطان المسلمين السياسي في الأندلس باب لذهابهم وانتهاء وجودهم . هكذا - في هذا

(1) التاريخ الأندلسي ، ص 515 - 516 ، وينظر ص 518 .

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 521 - 523 .

المكان وفي غيره - واجهت الصليبية الإسلام)⁽¹⁾، ومن لا تقوى نفسه على الثبات ووجد العون في يومه فقد يفقده في غده فيهوي . ومن لا تحمله قوته في الوقوف يكون - رغم الإمداد - عرضة للسقوط . لا حرج في استمداد العون وقت الحاجة فهو ضرورة وواجب ، على ألا يغدو الوسيلة الوحيدة ، تفنقذ غيرها .⁽²⁾

ويبدو ان هول ما لاقاه المسلمون في الأندلس عقب سقوط مملكة غرناطة ، كان دافعاً ليزكر الدكتور الحجي فكرته حول التعايش في شبه الجزيرة الايبيرية ، ويتساءل : (ما الذي كان سيحدث لو تعايشت إسبانيا النصرانية الظافرة مع مملكة غرناطة ، على الأقل كما بقيت إسبانيا النصرانية مدى القرون الأولى من الفتح ، أو حتى لو ترك المسلمون يعايشون النصارى في الوضع الجديد ولو على شكل أقلية ، كما كان هؤلاء قبلاً في المجتمع الأندلسي المسلم)⁽³⁾ .

ويؤكد في موضع آخر ذلك الأمل بالقول : (كم كنا نامل أن تتعايش الديانتان - الإسلامية والمسيحية - جنباً إلى جنب في شبه الجزيرة الإيبيرية ، خاصة وقد ظهرت بعض البوادر التي لو استمرت في النمو ، بتعاون الطرفين ، لكننا نشاهد المسجد يقف إلى جانب الكنيسة حتى الآن في إسبانيا والبرتغال ، ولحققت بذلك الكثير من الدماء التي أسيلت . ومما لا شك فيه أن اتحاد الامكانيات والتعاون الفكري وتزواج القابليات خير وانفع للإنسان وحضارته من نيران العداوات والحروب ، كل ذلك على الرغم من التسامح الرائع الذي عامل به المسلمون غيرهم)⁽⁴⁾

لقد كانت الأندلس تغالب عوامل السقوط ، والتي حملتها منذ وقت مبكر ، هكذا ينظر الدكتور الحجي ، ولكن استمرار أسباب الضعف وصلت بمرور الزمن ، إلى مرحلة عجزت الأندلس عن حماية نفسها . استطال عليها الوهن ، فقصى الله سبحانه بذهابها)⁽⁵⁾ .

و) بدأت بوادر الانحسار منذ لاحت الطوائف . تداورت الأندلس الأحداث وتقاذفتها المحن لا . لكن تداركتها عناية الله القدير ، من قبل ومن بعد ، بجهد إخوانهم في عدوة المغرب من المرابطين والموحدين ، فردت عنها المخاطر وحفظت عليها الدروب . حتى إذا ما ذهب ربح هؤلاء ، فتحت على الأندلس الباب المغلق وتتابع الانحسار ، في الفترة التي سبقت قيام مملكة غرناطة ، ولم يكن يلوح واضحاً توقفه قبل النهاية . لكن الله سلم ، وقامت هذه المملكة لتأوي إليها البقية الباقية ، عدداً من الأجيال . قيام غرناطة - في الظروف والأسباب التي تبينها - كانت الحائط الذي حجب الانحسار عن بقية الأندلس والسد الذي عنده توقف . كان بالإمكان - على ما يبدو - الثبات والاستمرار ، على الأقل حتى يتهياً من الأسباب المماثلة⁽⁶⁾

ويثبت الحجي بقاء النزاعات الداخلية تمارس أثرها السلبي في الأندلس ، والتي اشتدت مع الضعف الذي بدأ يصيبها ، والتآكل الذي أخذ يمتد لأراضيها ، فقد (أخذت مملكة غرناطة تنحدر نحو نهايتها بشكل واضح في الأيام الخيرة من حياتها ، لما اشتد تأثير العوامل المفتتة لوحدها والمهلكة لقوتها . كان بعض هذا نتيجة لسوء تصرف بعض الحكام أو الشذوذ في تصرفهم . كذلك لهبوط الحال والانشغال بالنزاعات الداخلية وصرف

(1) التاريخ الأندلسي، 520 - 521 .

(2) المرجع نفسه، ص 523.

(3) التاريخ الأندلسي، ص 522.

(4) أندلسيات ص 57 مع نماذج تالية 58 وما بعدها ، و ص 62 .

(5) التاريخ الأندلسي، ص 444.

(6) المرجع نفسه ، ص 523 ؛ و باتت الأندلس تعيش لحظات الأفول والانحسار بشكل تدريجي ، فلما (أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه ، وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً ، ويهصر من دوح تلك البلاد غصناً) المقري ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت 1041 هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس، (بيروت: دار صادر ، 1988)، ج 4 ، 510 .

الجهود في خصومات كانت أولى أن تتحد لتواجه العدو ، في وقت كان العدو يقوى والنصير يقل . إن بعض هذه الحالة كانت مبكرة . لكن قوة الأمة كانت تحتل ، حتى وصلت إلى مرحلة أصبحت عاجزة عن تحملها (1)

ومع ادراكه شدة تأثير العوامل الداخلية إلا إن الدكتور الحجي يرى ان التحدي الخارجي كان له التأثير الأكبر وله الكلمة النهائية في حسم الصراع الذي ظل يتنامى ويتصاعد لقرون عدة ، هذا التحدي الذي برز بصفة الصراع الصليبي الواضح ، فإن (المواجهات جرت بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، منذ وقت مبكر ، أخذ عدة أشكال ، أحدها الطابع الصليبي الذي حُملت رايته في أكثر من مناسبة . وليس من الضروري أن يقتصر معنى (الحروب الصليبية) على تعدد الجهات التي ترد منها الجيوش لتتجمع في حرب المسلمين ، لكنها ربما كانت جبهة واحدة فهي تحمل هذه الروح . ويراد بها : الحرب التي لا هدف لها ولا مبرر ، وعلى شكل من القسوة المبيدة والإفناء الشامل ، تخلو من أي مُثل ، ولا ترعى ذمة ولا تلتزم بعهد ولا تُبقي شيئاً أو تترك أحداً ، وتفعل ذلك ابتداء ، بل تقابل به - وبشكل أعنف - من سبق لها منه خير وفضل وإحسان في المعاملة (2) .

لقد (كان سقوط أية بقعة أو حصن من غرناطة في حرب أية من دول إسبانيا النصرانية لا يعني انتهاء الوجود السياسي بل حرب الإفناء في العقيدة وفي الوجود البشري . هذا ما كان يعطي طابعاً مريعاً مرعباً لتصارع إسبانيا النصرانية ضد بقايا الأمة المسلمة الأندلسية في مملكة غرناطة) (3) .

ويوثق الحجي بدقة بالغة مجريات ختام المأساة الأندلسية ، وكيف كان الرد على التعامل الحسن للمسلمين بالانتقام والقسوة ومحاكم التفتيش المؤلمة ، هذا الختام (لم يكن بهذا الشكل السريع أو السهل . بل كانت دونه دماء ودموع وحسرات وأحداث ومآسي وتضحيات من كل لون . قدمها المسلمون الأندلسيون دفاعاً عن عقيدتهم الإسلامية ، التي هي أعلى من كل شيء ، أمام الطغيان الأعمى والتعصب الأصم الذي استعمل كل وسيلة وتقلد كل سلاح في حب لا مبرر لها . ضد من أحسنوا إليه معاملة ، ووفروا له حضارة ، وأقاموا لإنارة الطريق مشاعلاً ، وأثاروا الأرض خيراً ، وعمرُوا المكان إنسانية ، بعقيدة الإسلام القويمة وشريعته الربانية السمحاء وتعاليمها النقية البيضاء . فما تعلموا منها ورفضوا خيرها ... تلت ذلك محن أخرى قاساها مسلمو الأندلس ، حتى قضى على وجودهم البشري وعلى عقيدتهم وكل ما يتصل بهم . اللهم إلا بقايا رماد ، تفلتت من المخالب وهي عنيدة) (4) .

(1) الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص 562 .

(2) المرجع نفسه، ص 529 ، وحول قسوة الصراع وتأثيره على غرناطة ، تنظر ص 530 .

(3) المرجع نفسه، ص 530 - 531 ، وينظر في ذات المعنى 532 - 535 .

(4) المرجع نفسه، ص 559 ، ويشير إلى نقض العهود ومحو كل أشكال الحكم الإسلامي من الأندلس ، تنظر الصفحات 568 - 573 ؛ يقدم مؤلف كتاب نبذة العصر وصفاً دقيقاً لأجواء سقوط غرناطة وشروط الاستسلام ونقض العهود ، ص 40 - 46 ، وفي نص مهم يقول فيه : (وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام ... ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل ، حيلة منه وكيداً ليقرّهم بذلك وليثبطهم عن الجواز ، فوقع الطمع لكثير من الناس ، وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشترؤا أموالاً رخيصة وأمتعة أنيقة ، وعزموا على الجلوس مع النصارى ... فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام في الأوطان ، أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ، ولم يزل ينقضها شرطاً شرطاً ويحلها فصلاً فصلاً إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات وثقات عليهم المغارم وقطع لهم الأذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى ، فخرجوا أدلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ جهراً إلا من يقولها في نفسه وفي قلبه أو خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ! فكم فيها من عين باكية ، وكم فيها من قلب حزين ، وكم فيها

وكان هذا الانتقام يطال السكان المسلمين وتراث الأندلسيين ، في وقت تمتع جميع سكان الأندلس بالحرية الدينية المهمة ، فقد (كان غير المسلمين يتمتعون بنعمة الإنصاف والسياسة العادلة ، وكفلت حقوقهم ، وضمنت حرياتهم . وقد تحدث عن هذا الأمر المؤرخون الأوروبيون ومن كان منهم متحاملاً . والعدل والإنصاف لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي واضح من التعاليم والوصايا الإسلامية وثابت من الأحداث التاريخية . لا ينكرها إلا مجانب للصواب مهمل للثابت من التاريخ ، مبتعد عن الروح العلمية ، رافض للاسلوب المنهجي السليم ، والمصادر متوافرة)⁽¹⁾.

(وكان هناك تنظيم اداري خاص بالمسلمين وآخر لغير المسلمين ، وكلما تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الإسلام أكثر . وبذلك يصبح غالبية سكان الأندلس يحتكمون إلى الشريعة الإسلامية ، وأصبح غير المسلمين أقلية يحتكمون إلى قضائهم . لقد ترك المسلمون للنصارى (وغيرهم) حق اختيار قضائهم ورؤسائهم . وليس هذا فيما يتعلق بالقضاء فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالجباية والأمن وتنظيم الحرف . في حقل الزراعة ، مثلاً : ذهب ما كان من اعتبار الزارع رقيق الأرض . وأصبح هؤلاء الزارع أحراراً ، لهم حقوقهم ، يزرعون الأرض ملاكاً لها . عاش غير المسلمون أحراراً في عقائدهم ، وبقيت الكنيسة تملك بعض الأراضي . وكان النصارى أحراراً في عقائدهم ، وبقيت الكنيسة تملك بعض الأراضي . وكان النصارى أحراراً في عقد مجامعهم ، واختلط كثير من غير المسلمين (النصارى واليهود) بالمسلمين ، وتقبلوا لغتهم وكثيراً من عاداتهم)⁽²⁾.

وتمتع (غير المسلمين ... بنعمة الإنصاف والسياسة العادلة ، وكفلت حقوقهم ، وضمنت حرياتهم . وقد تحدث عن هذا الأمر المؤرخون الأوروبيون ومن كان منهم متحاملاً . والعدل والإنصاف لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي واضح من التعاليم والوصايا الإسلامية وثابت من الأحداث التاريخية . لا ينكرها إلا مجانب للصواب مهمل للثابت من التاريخ ، مبتعد عن الروح العلمية ، رافض للاسلوب المنهجي السليم ، والمصادر متوافرة)⁽³⁾.

لقد رسم الدكتور الحجي تصورات الشاملة لتاريخ الأندلس منطلقاً من فهم إسلامي ورؤية دقيقة لأحداثه ، رابطاً بين مفاصله المهمة ، ومركزاً على أركانه الأساسية .

ثالثاً : وقفات في قضايا حضارية

قدم الدكتور الحجي على الجانب الآخر من اسهاماته ، تصورات مهمة عن الحضارة (مفهوماً وتنظيراً) وعن العديد من القضايا في هذا الشأن (التطبيق) .

من الضعفاء والمعدومين لم يقدروا على الهجرة واللحق بإخوانهم المسلمين ! قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سبلاً غزيراً مدراراً وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصليبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيبهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب ! ، فيالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وأضرها وطامة ما أكبرها ! عسى الله ان يجعل من امرهم فرجاً ومخرجاً غنه على كل شيء قدير (مجهول ، مؤلف ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، ضبطه وعلق عليه الفريد البستاني ، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، 2002) ، ص 43 - 45 ؛ وعن نقض اليهود مع المسلمين ينظر ، المقري ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت 1041هـ) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق سعيد احمد أعراب وعبد السلام الهراس ، (المغرب : الامارات العربية المتحدة ، 1980) ، ج 1 ، ص 68 - 71 . المقري ، نفح الطيب ، ج 4 ، ص 527 - 529 .

(1) التاريخ الأندلسي، ص 284

(2) المرجع نفسه، ص 141 .

(3) المرجع نفسه، ص 284 ، وينظر : الحجي ، عبد الرحمن علي ، الحضارة الإسلامية في الأندلس ، (بيروت : دار الإرشاد ، 1969) ، ص 23 - 24 .

ويفهم الحجي الحضارة الإسلامية أنها (- من ناحية - التنظيم الإسلامي القائم على العقيدة الإلهية فأنشأت مجتمعاً فريداً قدم ذلك الانجاز والانتاج الفكري المتميز (النظري والعملي) المتنوع الاتجاهات المتجانس الروح ، الموحد الهدف ، الذي أنبته الإسلام ورعاه ووجهه) (1) .

و(الحضارة الإسلامية ثمرة لطبيعة المجتمع المسلم ولون بنائه وحقيقة بنيته الاجتماعية والإنسانية الربانية والعلمية التي أقامها الإسلام في ابتناء ذلك المجتمع الكريم فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولة) (2) ، وبالتالي يظهر لدينا مدى التطابق بين تاريخ الإسلام وحضارته والتلاقي في مضمونهما (الإسلام) .

كما يرى أن من الواجب (تناول الحضارة الإسلامية بجانبها : العلمي المتعدد والعملي المتنوع - ودراساتها على أساس من العقيدة الإسلامية ونتائجها ، ففي ظلها أينعت وبصبغتها الربانية قامت وأفصحت ، فكانت واحدة موحدة شاملة واضحة بصفقتها ، إسلامية لا قومية فيها ن وإنسانية لا وطنية تحدها ، فهي ترتبط بالله وتستمد من شرعه ، وإليه لا إلى الطين تؤول ، ونتاجها والتأليف فيه - مع المظاهر الأخرى - يعبر عن ذلك قوياً ببنياً) (3)

ويقرر أن (صفة العمق والشمول هذه هي صفة الحضارة الإسلامية التي تفتقد كل حضارة أخرى جانباً أو أكثر منها . فيصح وصف حضارة الإسلام الكاملة الشاملة - وهي ذات أسس فريدة بأنها إنسانية ، أي إنها لكل الناس من ناحية ، وإنها من ناحية أخرى ذات نظرة صادقة للإنسان الذي كرمه الإسلام ووضعه في مكانه الطبيعي وسدد نظرتة) (4)

وعلى الجانب المقابل ، يتناول الحجي التقاطع والتناقض بين المسار السياسي والحضاري ، والذي قد يظهر عبر مراحل تاريخية متعددة ، فهو يرى أنه (مهما وجد في إطار التاريخ الإسلامي من شذوذ - مهما كان قليلاً أو محدوداً أو محصوراً - فلا يعتبر من الإسلام ... وإن مرت بالأمة الإسلامية أوقات ضعفت فيها أو ارتبكت أو أصابها التناثر الذي يلتزم لتحريك الروح الإسلامي الوثاب ، يرتقي بسرعة ويتقدم ليزيل كمل التراكمات المنهكة أو المنهكة ، فيبدو الوجه الناصع للمجتمع المسلم متلاً صافياً ... إذ إن الأمة الإسلامية كانت على الدوام تؤوب وتتوب إلى عقيدتها وتفيء إلى إيمانها بالله رب العالمين ودعوته وكتابه والسنة الكريمة لتقتدي برسول الله ﷺ رسولاً من الله إلى أهل الأرض أجمعين ، وقائداً لا ترتضي بكل ذلك أي بديل) (5)

وهو يعتقد (أن المناسبة لا توفر الامكانية و لكن تتيح المجال لها، تلك الامكانية التي بنتها قواعد و مكونات و ارضية اخرى ، و البناء الاسلامي يفتح المجال بميدان واسع لكل ابداع و كذلك ينشأ الامكانية المغروسة في النفس الانسانية غير الفاعلة التي تظهرها ظروف تنموية Potential تخرج الكامن من الطاقات ، و ينمي المتوفر منها، و البناء الإسلامي هو وحده الذي يوفر ذلك بأعلى درجة و أسما نوعية لارتباطه بالعقيدة و ارتباطه بمكوناتها و التوجه الى الله بكل فعل و عمل و جهد و هذا و غيره هو السبب فيما انجزه المسلمون من تفوق نادر لا يدرك الا بهذا المنهج و لكن ما من شك ان ذلك متأثر بالظروف المحيطة و لكن مهما بلغت سوء تلك الأحوال فإنه لا يقضي على مسيرة الابداع بأي مقدار و من هنا وجدنا ان الابداع لم يتوقف في احلك الظروف و هذه سمة يمتاز بها المجتمع المسلم و به يفهم أن المؤثرات التي تنال من نوعية

(1) الحجي ، الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ص 10

(2) الحجي ، عبد الرحمن علي ، دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي ، (ابو ظبي : هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث ،

2007) ، ص 7 ؛ وينظر في ذات المعنى ، الحجي ، الحضارة الإسلامية ، ص 13 - 14

(3) الحجي ، عبد الرحمن علي ، جوانب من الحضارة الإسلامية ، (بيروت : مكتبة الصوحة ، 1979) ، ص 8

(4) الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص 11

(5) المرجع نفسه، ص 8 .

هذا المجتمع تكون في السطح و قد اشرت الى ذلك بمقدار في كتاب التاريخ الأندلسي بعنوان الحركة العلمية، بعد الحديث عن معركة الزلاقة أيام الطوائف (1) .

وهذا امر يفهم ولا يبقى مثار استغراب إذا وجدنا ان الحياة العلمية قامت (على أسس قوية قوينة تقرأ فيها - مثلما تقرأ في غيرها - عقيدة الإسلام وشريعته التي شملت كل نواحي المسلم وأموره ، والحياة العلمية جانب منها . فالإيمان - في ها المجال وفي كل مجال - ينتج - مما ينتج العزة والغزارة ، عزة بالله وبشكل ما كان بدونه ، وغزارة آثارها ودفعها وباركها هذا الإيمان ، وباسم الله تفيض بالإنتاج المتوحد المتنوع والناصح النافع . وهو أمر مشهور وإن كان مطموراً أو مهجوراً أو محجوراً (2) .

وارتباط الفعل الحضاري بالإسلام ، انعكس على الواقع الحضاري الأندلسي بشكل باهر ، فإن (النظر في نتاج المسلمين العلمي والعلمي والإنساني في الحضارة الإسلامي التي شادوها بمنهج الإسلام دين الله تعالى يثير الدهشة والإعجاب لشموله وكميته ونوعيته ، أصالة في العلم وعمقاً في التفكير ودقة في الفهم وكثرة في التأليف وشمولاً للنظرة والمعرفة والفكرة ، رغم توفر التخصص . والكثرة تتمثل كلها في كثرة العلماء وشيوع المعرفة في الفنون وكثرة النتاج لثبت طويل من الأعلام ، وكثرة النتاج بالنسبة إلى وفرة منهم وأحياناً يتم ذلك في أمد قصير ... فهم من المكثرين والمجودين والمعجلين الذين انتجوا خير انتاج في أمد قصير . ومراجعة الفهارس - وهو فن إسلامي واضح - سواء كانت فهارس مؤلفات أو فهارس ومعاجم وبرامج ما درس كل عالم من العلماء لمن دونوا ذلك بجانب مؤلفات الرجال والأعلام التي ترجمت لهم وهي كثيرة في العالم الإسلامي ... كلها تعطي دليلاً قوياً .. فهي توضح كل ذلك تجليه وتعليه (3) .

ويسجل الحجي مدى التأثير الإسلامي الحضاري في الأندلس على الحضارة الغربية التي يراها ثمار الإسلامية ، فيؤكد : ((أن الحضارة الحالية - بمنهجيتها واتجاهها العلمي والتقني - ثمرة تلمذتها الوحيدة على جوانب من الحضارة الإسلامية وبعض علومها التي ظهرت يوم ما ملكت بديلاً للأخذ عن العالم الإسلامي ، بالإجبار وبلا أدنى اختيار ، إذ ليس من باب للعلم غيره ، رغم العداء الصليبي - للخلاص من الجهل المكين والعتمّة الضاربة الجذور والأمية الشاملة المطبقة والشقوة القاتلة المغلقة ، تلمذة لا في العلوم وحدها بل وكذلك التفتح للعلم والتعلق به وتوفير الرغبة فيه والإحساس بضرورته وتعلم منهجيته التي سبقت نقل العلوم من الحضارة الإسلامية الى الغرب ... لكنها أظهرت بعدها لكل ذلك عقوقاً ، من ناحيتين . برفضها الأصول التي قامت عليها الحضارة الإسلامية الناشئة في أحضان الإسلام وتنكرها لكل معنى إسلامي حملته منقولاتها ، فحاربتها دعوة : العقيدة والشريعة وما يرتبط بهما ، وحاربتها أمة : جماعة وأفراداً وما يتصل بهما ، دون هواده ، مسلطة عليها كل سلاح ، تالفة كل ذمة ، متتمرة من غير مبالاة (4) .

(ونتيجة للأفكار التي تسربت إلى أوروبا من الأندلس الإسلامية ومن غيرها بدأت تعي تدريجياً وتصلح من أحوالها ونشأت أفكار جديدة كانت بداية لما يسمى بعصر النهضة . ولا نبعد عن الصواب كثيراً إذا قلنا إن هذه العلوم الإسلامية والمفاهيم كانت هي المنطلق لأوروبا لا إلى التقدم العلمي فحسب ولكن أيضاً إلى التغييرات السياسية والاجتماعية التي حدثت هناك ، والتي تلت ذلك ، وإن كنا لا ننكر أسباباً أخرى محلية . ولعل حركة الإصلاح الديني التي قام بها كالفن ولوثر لم تكن في معزل عن هذه المؤثرات ، وربما غيرها

(1) من اجابات الحجي على اسئلة الباحث ؛ وكذلك : التاريخ الأندلسي ، ص 400 - 402 ؛ وللمقارنة ص 409 - 410 حقيقة الطوائف والحركة العلمية وقوة العقيدة

(2) الحجي ، دراسة الظاهرة العلمية ، ص 12 ، وينظر في المعنى ذاته : ص 47 - 48

(3) دراسة الظاهرة العلمية ، ص 29 وما بعدها شواهد عن تأليف ضخمة اتمها مؤلفوها في مدد قصيرة مثل اعمال الاعلام لابن الخطيب والمقدمة لابن خلدون .

(4) دراسة الظاهرة العلمية ، ص 36 - 37 .

من الثورات والحركات التي دعت إلى التحرر من ظلم السياسيين والإقطاعيين وكذلك الدعوة إلى توحيد الأجزاء المختلفة في البلدان الأوربية (1) .

وقدم العلماء في الأندلس صورة مشرقة للنموذج الممزوج بالسلوك التطبيقي ، فقد (وجدت للعلم عادات وأعراف ، وللعلماء مست وسمات وإخلاق ومسؤوليات . إن من يتصدر مجالس التدريس لا يحتجب عن المجتمع بل يقف مع أفرادهم في قضاياهم ويكون على علم بأحوالهم . بل كذلك يتصدر حلّ مشاكلهم وقيادة تحركاتهم . فطالما كان أهل العلم كهفاً للناس وملجأ (2) ، وقد (كان هؤلاء العلماء في كل ذلك صادقين عن عقيدتهم الإسلامية وبها ملتزمين . فيها منها تكونت دوافعهم العلمية وفي قالبها صيغت أهدافهم . فخدموا الخير وعملوا للحق ووقفوا عند حدوده . كانوا في عملهم العلمي يبحثون عن رضا الله تعالى راغبين فيما يقربهم إليه ويكسبهم العتبي والثوبة . وتلك كانت تجارتهم يعملون لإثرائها ويسعون لإنمائها . كانوا أصحاب رسالة وحملة أمانة يعملون بجدية وهمة لأدائها (3) .

وفي مجال آخر مرتبط بالفعل الحضاري ، برّز الحجي الجانب الدبلوماسي ، موضحاً ارتباطه بالازدهار والارتقاء ، (إن الدبلوماسية تزدهر بازدهار الحضارة وتمكن الاستقرار والتقدم ، مما يجعل ذلك البلد - خاصة في تلك القرون - مقصداً للسفارات القادمة إليه من الأقطار الأخرى ، طالبة صداقته والاستفادة مما عنده ، يتلو ذلك توجه السفراء منه إلى تلك الأقطار أو بعضها . ولقد ازدهرت الدبلوماسية في الأندلس ، وماج بلاد قرطبة - في فترات كثيرة - بالسفراء من الشرق والغرب ، خاصة في عصر قرطبة الزاهر في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، خلال حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (4) .

والأمر مرتبط بقوة الأندلس ، إذ أن ذلك كان هو العامل المحرك للتعاطي مع حكام الأندلس ، إذ نجد إنه (في عهد الناصر وابنه الحكم الثاني .. بلغت الدولة الأندلسية مكانة الصدارة في العالمين الإسلامي والمسيحي ، واعترف عالمياً بالناصر على أنه أقوى ملوك زمانه ، فكثر الوفود والسفارات من كل جانب قاصدة الأندلس ، تخطب ود قرطبة وترغب في عقد السلام معها . (5) ، فقد (اعتاد بعض حكام دول إسبانية المسيحية نقض عهودهم لأول فرصة تلوح ، خاصة في فترات انشغال الحكومة الإسلامية داخلياً ، ظناً بضعفها ، ويصاحبهم نفس الظن أحياناً بمجيء حاكم جديد .. (6) ، وهو ما كان ينبغي التعامل معه بانتباه أكبر وبقطة أكثر .

وتابع الحجي العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشمالية في الفترة الأموية ، موضحاً أن (هذا النوع من العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا الشمالية يعتمد كثيراً على حال السلطة المركزية في قرطبة ، فإن كانت تلك السلطة قوية كانت العلاقات بين الثوار ودول الشمال الإسباني (مملكة ليون ونافار

(1) الحجي ، الحضارة الإسلامية ، ص 67 .

(2) المرجع نفسه، ص 49 ويورد شواهد عدة على هذا الجانب .

(3) المرجع نفسه، ص 53 و ص 55 ، وكتابي (دراسة الظاهرة العلمية) و (الكتب والمكتبات) تمثلان بنماذج عديدة عن حب الكتب واقتناء المكتبات ، والوقف على الجانب العلمي (التحبّيس) ، ونقل الكتب والرحلات ، والغرام بالعلم .. الخ .

(4) الحجي ، عبد الرحمن علي ، أندلسيات ، المجموعة الأولى ، (بيروت : دار الإرشاد ، 1969) ، ص 45 - 46 .

(5) أندلسيات ، المجموعة الأولى ، ص 74 - 75 مع نماذج تالية فيها تدقيق وتثبت رائع ؛ ويؤيد ابن عذاري بفضل الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فيقول : (ولما ولي الناصر لدين الله ، اعترز ركن الدين ، واحتفى بدار المسلمين ، وقام الجهاد على ساق ، وخدمت نار الخلافة والشقاق ، ودخل الناس في طاعته أفواجا ، واستنفروا إلى دعوته أفراداً وأزواجا) ج 2 ، ص 207 ؛ كما يصفه ابن الخطيب بأنه : (الذروة العليا في ملوك بني أمية . طال عمره ، واتسع سعده ، واشتهرت أيامه ، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة الغربية طاعته ، وعلت على منابرها كلمته) أعمال الأعلام ، ص 29 ؛ وتفاصيل الجهد الدبلوماسي بهذا الخصوص مبثوثة في الكثير من المؤلفات التاريخية الأندلسية كما عرضها الدكتور الحجي .

(6) أندلسيات ، المجموعة الأولى ، ص 82 ، وينظر المجموعة الثانية ، ص 56 .

وامارة قشتالة) ضعيفة أو غير قائمة .. كان الثائرون الأندلسيون لا يقتصرون في طلب المساعدات العسكرية على دول الشمال الإسباني ، بل يتوجهون أحياناً إلى الفرنجة أو إلى الشمال الإفريقي ... كانت المعونة التي تقدمها دول الشمال لهذا الثائر أو ذاك من الإيواء في البداية ، كي تستفيد منه عند الحاجة وبخاصة خلال المعارك حيث يحصلون منه على معلومات مفيدة أو يشاركونهم في الحرب ضد المسلمين ، لم يكن من الضروري أحياناً أن يطلب الثوار المعونة بل كان الأسبان (والفرنجة) يخفون لمساعدتهم ابتداءً . فإذا سمعوا بثورة سارعوا لتأييدها ، بل وقد يكونون المحرضين عليها في الخفاء . كانت بعض هذه العلاقات آنية الدوافع ، خاصة من الجانب المسيحي في الشمال الذي نادراً ما كان يلتزم بالعهد بصورة اعتيادية . ولذلك كانت العلاقات الناشئة تقوم وتنتهي وأحياناً بسرعة ... من اليسير أن ندرك سوء ما كانت تجره من نتائج ، إذ هي تفتح الباب للانتقام ، وتعرض الجيش المهاجم للأخطار .. تختلف طبيعة الثورات فتأخذ لذلك أشكالاً متعددة فهي إما ثورة يقوم بها فرد ، فإذا هلك خمدت الثورة بهلاكه . وهي إما ثورة يتوارثها أفراد عائلة معينة . أو هي ثورة مدينة تسعى إلى استمداد المساعدة من وراء الحدود (1) .

ووقف الحجي عند التسامح الإسلامي مع الأقليات التي اختارت العيش في ظل الحكم الإسلامي ، مما المحنا لنا سابقاً ضمن نقض العهد مع المسلمين بعد سقوط الأندلس سنة 897 هـ / 1492 م ، منوهاً بأهمية العلاقات المشتركة ومنها المصاهرات ، إذ يذكر : أن الباحث يجد (علاقات مثيرة ومتنوعة بين الأندلس وإسبانيا المسيحية في الشمال من شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ، خاصة في الفترة الأموية ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، نظراً للجوار والاحتكاك في كل المجالات ، ويظهر بصورة أوضح في هذه الفترة ، فكما قامت علاقات دبلوماسية وتبادل سفارات إلى جانب العلاقات الثقافية والأخرى العسكرية ، للتعاون ضد العدو المشترك ، كذلك قامت علاقات التزاوج والمصاهرة ، وكان القليل من هذه المصاهرات ذات أهداف سياسية . وكما كانت هذه المصاهرات مألوفة على مستوى الحكام كانت كذلك بين أفراد الشعب في الأندلس ، مسيحيين ومسلمين . ولا يقصد بألفة هذه المصاهرات انحصارها داخل الحدود الأندلسية فقط ، بل - وعلى الأكثر - بين المسلمين والمسيحيين في دول الشمال الإسباني (2)

كما يخلص إلى إنه : (ربما أسهمت - هذه المصاهرات - إلى حد ما في توطيد علاقات الجوار بين الأندلس وحكام الشمال الإسباني في شبه الجزيرة الأيبيرية) (3) .

ولا يكتفي الحجي بهذه الجوانب ، وإنما يشمل بالحديث تاريخ الموسيقى الأندلسية ، في كتاب متكامل مختص بهذا الشأن ، مشيراً إلى تاريخها وأبرز روادها ، ومدى التطور الذي حققه المسلمون في مجالاتها ، دون اغفال وجود بعض المظاهر المتناثرة في أوقات متأخرة لم تكن تناسب واقع المجتمع الأندلسي ، لكن نوع بنائه كان يغطي ذلك و يزيل آثاره أو على الأقل يقللها ، وهذا التفاوت في أجواء الموسيقى و الغناء و المغنين و اختلاف ذاك عن وقتنا الحاضر بينه في الصفحات الأخيرة من نفس الكتاب (4) .

لقد أرخ الدكتور الحجي للأندلس ، ومنح الأرض والتاريخ والحضارة مكانتها اللائقة ، وترك الكثير من الأبواب مفتوحة للباحثين ، وأشار إلى دورها المهم في نهضة أوربا ، فيما ينبه إلى إن التاريخ الأندلسي لا زال ميداناً خصباً للبحث ، فيقول : (كلما زاد الفهم لهذا التاريخ ومجتمعه و حضارته و ازداد عمقا مع

(1) أندلسيات ، المجموعة الأولى ، ص 107 - 109 مع نماذج عديدة تالية .

(2) أندلسيات ، المجموعة الثانية ، ص 75 - 76 ؛ وكذلك ينظر ص 85 .

(3) أندلسيات ، المجموعة الثانية ، ص 85 ، ويوثق الحجي أشكال التسامح الأندلسي مع الأقليات غير المسلمة ، عبر مظاهر عدة ، ومنها الحرية الدينية ص 24 - 30 ، المصاهرات ص 30 ، المساواة ص 32 - 33 .

(4) ينظر : الحجي ، عبد الرحمن علي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، (بيروت : دار الإرشاد ، 1970) ، ص 9 - 10 ، وما بعدها ، وكذلك اجابات الحجي عن اسئلة الباحث .

الصحبة المتواكبة أدرك هذا الأمر بشكل أكثر سواء شمل هذا ما كتب فيه كتابة دون المستوى المرجو أو ما أهمل منه إهمالاً يكاد يكون كاملاً أو ما أسبى فهمه، فالفتح الإسلامي للأندلس الذي قد يُظن أنه قد بلغ الكفاية في بحثه أراه بأشد الحاجة للكتابة فيه و ما أهمل منه عن قصد أو غيره من مثل انتشار الإسلام في الأندلس و دور العلماء في مجتمعه والقضاء وجوانب أخرى كثيرة نالها الإهمال إلى جانب ما ذكر من شبهات قاتلة لبعض موضوعاته من مثل بلاط الشهداء واستخذاء الطوائف وسقوط الدول المتتابعة. وهكذا بالإمكان سوق عشرات الموضوعات في هذا الأمر ان لم يكن المئات ويشمل هذا الحياة العلمية والاجتماعية والانسانية كافة مما يدعو الى اعادة النظر وقراءة جديدة للنصوص ومتابعة للمخطوطات وكثير من شهادات غير المسلمين تؤكد هذه الأمور وهذا يشمل الحياة الأندلسية بأركانها الثلاثة: الأندلس، محاكم التفتيش، وما تبقى حتى اليوم من ذلك الميراث. لذلك فلا بد من تشجيع الدارسين على هذا وجلب انتباههم وتشجيعهم على ذلك وهذا ما يجب فعله كما قد تتلمس ذلك وتراه و تحس به (1).

لقد قدم الدكتور عبد الرحمن الحجي تصوراً تاريخياً وحضارياً متكاملًا للأندلس ، صاغه بنظرة إسلامية واضحة ، وقام على أساس متين من التوثيق التاريخي ، والدقة المتناهية ، والنظرة الشمولية التي تتناول جميع جوانب الحياة الأندلسية دون تمييز ، فاستحق ان يكون في طليعة المؤرخين الأصلاء .

(1) من اجابات الحجي على اسئلة الباحث ، بتاريخ 2013/8/11

خاتمة : وقفة تقييم

بعد هذا الاستعراض لنتاج وجهود المؤرخ الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، وأبرز أفكاره بخصوص التاريخ الإسلامي وحضارته عامة ، والأندلسي منه خاصة ، يمكننا تلمس عدة مؤشرات أساسية لهذا الموضوع ، ومنها :

1. لقد عكس النتاج الثرّ الذي قدمه الدكتور الحجي إماماً أندلسياً متميزاً ، وادراكاً لمفاصله الرئيسية ، وعوامل القوة والضعف فيه ، وهو امر نابع من ادراكه العام لأهمية التاريخ ودوره في نهضة الأمم.

2. قدم الحجي أحداث التاريخ بلغة أدبية أخاذة ، وعاطفة بالغة الإبداع ، تمنح النص التوهج الكبير في الأسلوب والصياغة وانتقاء الكلمات ، إلا إن المبالغة في ذلك إلى حد ما ، أبعد بعض النتاجات عن الساحة الأكاديمية قليلاً ، وجعلها ملائمة للثقافة الإسلامية العامة أكثر من المتخصصة .

3. بدا التوجه والمنظور الإسلامي واضحاً وثابتاً في فكر ومنظور الحجي ، ولم يتغير هذا الجانب طيلة عقود الاسهام التاريخي الذي قدمها ، ولا نجد أن في ذلك مبالغة غير علمية ، كونه يعبر عن الهوية الأصيلة لهذا التاريخ ، ومدى ارتباطه بالدين الذي تمت كل المنجزات في ضوئه ، مثلما إنه تأسيس بني على معلومات موثقة ومصادر عاشت الحدث لحظة بلحظة .

4. تعامل الحجي مع حركة التاريخ الإسلامي باعتبارها معبرة عن وحدة متكاملة ، يرتبط اولها بآخرها مهما اختلفت العناوين السياسية التي ظهرت بها ، والتي - وعلى الرغم من تقاطعها في بعض الأحيان - كانت تمارس دورها في استمرار الوجود الإسلامي في الأندلس وأماكن أخرى من العالم الإسلامي وتمنحه البقاء .

5. لمسنا الميل والارتكاز على التاريخ الحضاري والمجتمعي أكثر من السياسي ، وابرار ميادينه وباقتدار بالغ ، وهذا الأمر - دون شك - كان انعكاساً لإيمان الدكتور الحجي بان اختزال التاريخ الإسلامي بالجانب السياسي هو أحد وسائل التشويه المتعمدة التي تعرض لها وبالتالي فعلاج ذلك التشويه يقتضي تسليط الضوء على ما خفت او تم تجاهله عمداً ، ولكننا من جهة أخرى ربما نجد سبباً آخر ، وهو أن هذا الجانب - أي الحضاري - هو الذي كان فيه المنجز الإسلامي الحقيقي أكثر من المجالات السياسية والعسكرية التي شهدت التقلبات ولحظات الضعف والتراجع والتردي، مما يؤكد صحة رؤاه وأفكاره التي عبر عنها دوماً .

6. يؤمن الحجي كذلك بان المجتمع الأندلسي (ذو الهوية الإسلامية) ظل وفياً لرسالة الدين وعقيدته التي آمن بها ، وبقيت هذه العقيدة هي التي تمدّه بالقوة ، فإن انحرفت اليوصلة في أوقات متباعدة ، فإنها كانت تعيده مجدداً إلى نقاط التوازن والالتزام ، فمهما برزت من ظواهر سلبية فإنها لم تستطع أن تطمس روعة الجوهر .

7. ارتكزت نظرية الحجي في تفسير سقوط الأندلس على التحدي الخارجي (الصليبي) والذي يرى أنه يمثل العامل الأكبر المؤثر ، فضلاً عن النزاعات الداخلية التي كانت تستنزف الطاقات وتضعف القوى ، وهو أمر دقيق ، وكان من المهم ربطه بالممارسات الإسلامية إزاءه ولا سيما في ميدان الدبلوماسية والعلاقة مع الآخر ، وعدم التيقظ لحالة القلب في العلاقات وعدم الوفاء والالتزام بالعهود .

8. تبدو فكرة (التعايش) التي طرحها الحجي ، وتمنى تحقيقها في اكثر من موضع كما رأينا ضمن ثنايا البحث جديرة بالاهتمام ، فهي تعبر عن فكر واقعي ، وأفق واسع ، وفهم يقوم على التشارك لا الاقصاء ، وعلى الحرية لا القهر ، ونبذ الغدر وتعميق الالتزام بالعهد والوفاء .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية

- ابن بسام الشنتري ، ابو الحسن علي ، (ت 542 هـ / 1147 م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، 1997.
- ابن حزم الأندلسي ، أبو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت 456 هـ / 1063 م) رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، ط 2 ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ، 1987.
- ابن حيان القرطبي ، حيان بن خلف (ت 469 هـ / 1076 م) المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، دار الثقافة ، د. ت .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (808 هـ / 1406 م) العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، بيروت ، دار الفكر ، 2000
- ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد 712 هـ) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، تحقيق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد معروف ، تونس ، دار الغرب الإسلامي ، 2013 .
- العذري ، أحمد بن عمر بن أنس (ت 478 هـ) نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، د.ت.
- ابن القوطية ، ابو بكر محمد بن عمر القرطبي (ت 367 هـ / 977 م) تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، القاهرة ، دار الكتاب المصري ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1989.
- مجهول ، مؤلف أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط 2 ، القاهرة ، دار الكتاب المصري ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1989.
- مجهول ، مؤلف نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، ضبطه وعلق عليه الفريد البستاني ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 2002 .
- المراكشي ،أبو محمد عبد الواحد بن علي (ت 647 هـ / 1250 م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، د. ت .
- المقري ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني (ت 1041 هـ / 1631 م) – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق سعيد احمد أعراب وعبد السلام الهراس ، المغرب ، الامارات العربية المتحدة ، 1980.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت، دار صادر ، 1988.

ثانياً : المراجع الثانوية

- بيضون ، ابراهيم
الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 92 - 422 هـ ، ط 3 ، بيروت ، دار النهضة ، 1986 .
- الحجي ، عبد الرحمن علي :
 - أندلسيات ، المجموعة الأولى ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1969 .
 - أندلسيات ، المجموعة الثانية ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1969 .
 - التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ، ط 2 ، دمشق ، بيروت : دار القلم ، 1981.
 - تاريخ الموسيقى الأندلسية ، بيروت ، دار الإرشاد ، 1970
 - جوانب من الحضارة الإسلامية ، بيروت : مكتبة الصحو ، 1979
 - الحضارة الإسلامية في الأندلس ، بيروت : دار الإرشاد ، 1969
 - دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي ، أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، 2007 .
 - الكتب والمكتبات في الأندلس ، أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، 2007 .
 - نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، دمشق ، بيروت : دار ابن كثير ، 1999 .
- رمضان ، عبد المحسن طه
الحروب الصليبية في الأندلس ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية .
- السامرائي ، خليل ابراهيم وآخرون
تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، 2000 .
- طه ، عبد الواحد ذنون
- الإسلام في المغرب والأندلس كيف انتشر ولماذا؟ ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2009.
- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2004.
- عنان، محمد عبد الله
دولة الإسلام في الأندلس ، ط 4 ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1997 .
- مؤنس ، حسين
فجر الأندلس ، ط 4 ، القاهرة ، دار الرشد ، 2008.

ثالثاً : الدوريات

- جاسم ، بهار احمد جاسم ، موسى ، سماهر محي
أبو الوليد الباجي وأثره في الدعوة لتوحيد الأندلس ، مجلة ديالى ، العدد الثلاثون ، 2008 .
- الحجي ، عبد الرحمن
- حوار مع مجلة المجتمع ، العدد 1712 ، 29 / 7 / 2006.
- كتابة التاريخ الإسلامي لمن ؟ ، مجلة المجتمع ، العدد 1972 ، 8 / 10 / 2011.
- مشروع مركز رعاية التاريخ الإسلامي ، مجلة المجتمع ، العدد 1985 ، 14 / 1 / 2012 .
- ملحمة التاريخ والمؤرخ ، مجلة المجتمع ، العدد 1898 ، 17 / 4 / 2010.
- طه ، عبد الواحد ذنون
التراث المغربي والأندلسي في مؤلفات المؤرخين العراقيين ، بحث منشور ضمن أعمال ندوة التراث المغربي والأندلسي التوثيق والقراءة ، (تطوان : 1991) .

✚ اجابة الدكتور عبد الرحمن الحجي على مجموعة من الأسئلة التي قدمها الباحث له عبر البريد الالكتروني ، بتاريخ 2013/8/11 .